أنور الجندي

الحب والمجد
في حياة شعرائنا المعاصرين

تراجم الاعلام — ٣

دار
الأعلام للطبع والنشر
٨٩ شارع السلطان حسين
بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤلفات أنور الجندى

- المرأة والحب فى حياة الأدباء المعاصرين (صدر)
- نساء فى حياة الأدباء (صدر)
- الحب والمجد فى حياة الشعراء المعاصرين
- الرسول الإنسان (الكتاب القادم)
- أعلام من الشرق والغرب
- أعلام الإسلام (الجزء الثانى)
- أعلام على طريقة المقابلة
- وراء كل فنان ملهمه
- المرأة والعبقرية
- أدب الاعتراف
- وجوه على الشاطىء
- حورية البحر (جولات فى الأدب والفن والحياة)
- بلا أمل
- أذكرينى

تصـــدر تباعاً وتطلب من

مكتبة الأنجلو المصرية

المرأة والمجد

فى حياة الشعراء المعاصرين

لازلت وأنا أكتب مقدمة هذا الكتاب اقاسى الازمه . لقد اضطررت لكى اتم إخراج الكتاب الماضى إلى تضحية غالية . إذ تخلصت من كمية ضخمه من كتابى الأول بسعر تافه خيالى فى تفاهته . ولكن هذا المبلغ الذى فرحت بالحصول عليه أخذه تاجر الورق فى مقابل قرضه . ورفض أن يعطينا الدفعه التالية من الورق وبذلك أعطانى « مقلبا » ساخنا . أحسست معه بالالم . فقد كان هو آخر أمل فى أن اتم الكتاب الثانى وأجعله يرى النور بعد أن اتم العمال جمع ملازمه . وكنت فى خلال هذه الفترة ارهق نفسى بالعمل حتى أحصل على بعض المال لأسدد بعض كمبيالات استحقت منذ شهرين . وإذا بى مضطر إلى أن أبحث من جديد عن بعض المال لشراء الورق .. على الأقل ، الورق الذى ينقذ الملازم المجموعة فى المطبعة . ثم انظر فاذا بى أمام مشكل جديد هو هذا الكتاب الذى بين يدى . أنه سيدخل المطبعة تواً ويصبح بعد أيام فى حاجه إلى ورق جديد قبل أن يكون الكتاب السابق قد بيع أو حصلنا منه على شىء ..

أليست هى نافذة مغلقة فى حياة الأدباء . أننى منذ أغسطس الماضى .. أى منذ عشرة شهور كاملة . وأنا ابدأ هذا المشروع وأكافح فى سبيله وما أرانى حتى الآن خطوت أكثر من خطوة واحدة . ما كان أغنانى عن هذا كله لو أن للادب فى مصر سوق أو مكان .

أننى أود اليوم الذى تتحرر فيه الدوائر الآدبية من أثار الماضى ومتى كان الأديب المفكر الذى يعيش بين أحلامه وأوراقه ومراجعه . مطلوب إليه أن يشق فى سبيل البحث عن ورق الجاير وعن عمال الجمع وعن الدوار

والطباع . وشراء الأسداس والأرباع والرقائق والبحث عن الخطاط والحفار ومحاسبة هولاء واحتمال عنائهم ..

أنني أعتقد أن الأديب له مهمته وفنه . أنه يجب الا ينزل السوق ولا يشارك في هذه المعاني المادية فهي للناشر وحده . ولكن أين الناشر الذى يعترف بالاديب الذى لم تقدمه الصحافة إلى أعمدتها الاولى . ولم يكتب عنه فلان وفلان من مشاهير الكتاب. إن القراء يؤمنون بالكاتب البهلوان الذى يقدم لهم كل يوم الجديد المثير الغريب ،أما الابحاث الهادئة الصادره عن نفسيات تؤمن بالكلمة . وجلال رسالة القلم . فسوف يمضى وقت حتى يوضع لها فى الميزان قدر او حساب .

* * *

وبعد هذه هي الحلقة الثالثة من الصور النفسية التى نقدمها لمجموعة من ادبائنا وكتابنا وكاتباتنا . اردنا بها ان نعطى لوحة خفيفة — لعلها بالطباشير — لحياة هولاء الشعراء والكتاب مستمدة من اثارهم .

على اننا سنواصل هذا اللون من الصور النفسية بالنسبة لطائفة من اعلام الادب والفكر فى الشرق والغرب . من هولاء العظماء الذين تركوا فى الحياة اثاراً لاتزال حية خالدة يذكرها التاريخ .

والى اللقاء

شارع الهرم فى ٦ أغسطس ١٩٥٥

أنور الجندي

اقبال



عاشوا في عصر واحد ، بين مصر والعراق والباكستان ، فى ظروف متقاربه متشابهة ، فكانوا اعلاما على النهضة الابية فى الشرق ، وكان كل منهم قطبا فى وطنه ، أولئك هم شوقى واقبال والزهاوى وحافظ

لقد تحدث الناس فى مصر والشرق العربى عن شوقى والزهاوى وحافظ وظل اقبال مطويا عنا وقتا من الزمن ، الى ان ترجم شعره الى العربية ، والى ان ارتبطت الاواصر الفكرية والادبية بين اقطار الشرق الاسلامى بعد الحرب العالمية الثانية ، نتيجة للتقارب الروحى والسياسى الذى جاء استجابة طبيعيه للتطور

ويحق لنا اليوم ان نتساءل : اين نضع اقبال بين زملائه شعراء العصر الواحد ؟

إنها محاولة لمقارنة بين مذاهب شعراء عاشوا فى جيل واحد ، وفى بيئة صبغتها اسلامية ، وروحها الوطنية كانت تتحمس للحرية وترغب فى مقاومة

الغاصب وتعمل على تحرير البلاد ، وكان هذا هو المعنى العام الذى اجتمع عليه الشعراء الاربعة فى الباكستان والعراق ومصر

لقد جمع بينهم الشرق بآماله وآلامه . وربطت بينهم آصرة الدفاع عن الاوطان والحرية المسلوبة ، فهل تراهم التقوا على اوضاع متقاربة او وجهوا قضاياهم بأساليب مختلفة وعلى طرق متعددة ؟

الحق انهم استجابوا على درجات متفاوته ، كان بعضهم فيها قويا حادا عنيفا ، وكان بعضهم هادئا فاترا ، وكان احدهم ضيق الافق محدود المعانى وكان الآخر انسانيا واسع الآمال . كانت القومية مذهب البعض ، والعربية مذهب البعض الآخر والاسلامية العامة وحدها مذهب اقبال

ويرجع هذا فى الغالب إلى هذه الطبيعة الانسانية التى يصدر عنها الشاعر او الكاتب او الفيلسوف ، وتمتد جذور الطبيعة وتتشعب ، وتتصل إلى حد كبير باتجاه الشاعر ان كان فلسفيا أو عاطفيا ، وان كان عصبيا او هادئا ويتصل هذا بثقافة الشاعر وعلمه ، وفهمه وخبرته ، ويتصل هذا بأسفار الكاتب والشاعر ، ومشاهداته ، والبلاد التى زارها

ونحن اذ نعرض هنا لشعر الشعراء الاربعة ، بعد ان أصبحوا فى ذمة التاريخ ، يحق لنا ان نتكلم عنهم فى صراحة تامة ، وان لم نطبق عليهم مقاييس البحث العلمى الحديث ، فنقول ان شعراءنا الأربعة كانوا مؤمنين بأوطانهم كل الايمان ، وكانوا يحبونها ويخلصون لها ، وانهم كانوا يصدرون عن عاطفة خالصة . غير ان هذا لا يمنع من القول بأن ظروف الحياة نفسها كانت تضع كل منهم فى الموضع الذى يتناسب مع طبيعته ونفسيته

فشوقى هذا هو ابلغ شعراء العربية بعد المتنبى ، بلا منازع ، ولكنه وهو التركى الاصل — كانت نزعته اسلامية محدودة بحدود الخلافة التركية اذ ذاك ، وهى ابرز مظاهر شعره فى حياته الاولى ، فلما نفى تحول

حثيثا إلى الفن الخالص ، وهجر أدب المديح بعد أن أسرف فيه فى أول حياته اسرافا عنيفا ... وكان اتجاهه الاخير « تاريخيا » فقد وضع قصائد عن النبى ومسرحيات عن كليوباترة ومجنون ليلى وعلى بك الكبير :

وهو ليس واضحا فى اتجاهه الفلسفى ، وقصائده التى يمكن أن نجد فيها هدفا أو غاية: قليلة ونادرة . وقد حاولنا — ونحن هنا فى مجال المقارنة — أن نجد له قصيدة يمكن أن تعد نموذجا فى الشعر الفلسفى الذى يكشف عن مرمى الشاعر فلم نجد الا هذه الأبيات :

أمم الهلال : مقاله من صادق	والصدق اليق بالرجال مقالا
متلطف فى النصح غير مجادل	والنصح أضيع ما يكون جدالا
من عادة الاسلام يرفع عاملا	ويسود المقدام والفعالا
ظلمته ألسنة تؤاخذه بكم	وظلمتموه مفرطين كسالى
هذا هلالكم تكفل بالهدى	هل تعلمون مع الهلال ضلالا
سرت الحضارة حقبة فى ضوئه	ومشى الزمان بنوره مختالا
وبنى له العرب الأجاود دولة	كالشمس عرشا والنجوم رجالا
رفعوا له فوق السماك دعائما	من علمهم ومن البيان طوالا
الله جل ثناؤه بلسانهم	خلق البيان وعلم الأمثالا
وتخير الاخلاق أحسنها لكم	ومكارم الأخلاق فيه تعالى
كالرسل عزما والملائك رحمة	والاسد بأسا والغيوث نوالا
عدلوا فكانوا الغيث وقعا كلما	ذهبوا يمينا فى الورى وشمالا
والعدل فى الدولات أس ثابت	يفنى الزمان وتنفد الاجيالا

وقد رأينا شوقى فى هذه الابيات التى اخترناها ، فى أهاب الشاعر

الاسلامى على النحو الذى يفهمه من الفلسفة الاسلامية فى حدود فهمه للإسلام

ومن هذه القصيدة تتكشف لنا نفسية شوق ، الشاعر المادى، الذى يفهم الدنيا على مهل ، يفهمها على أنها « لوحة » جميلة حلوة الاخلاق والفضائل فحسب ، ويقف عند هذا لا يعدوه

أما حافظ فقد عرف طويلا بأنه شاعر البؤس أو شاعر المجتمع ، وقد غلبت النزعة الوطنية المصرية الخالصة عنده على كل شيء ! فهو شاعر مصرى قومى ، يعيش فى الأحاسيس المصرية وحدها ، ويقف من الحادثات موقف الغضب ، ولكنه اذا عرض لها فى شعره عرضها على طريقة مخففة لأنه موظف ولأنه كان يخشى السجن والاعتقال

ولذلك جاءت نزعته الوطنية القومية المحدودة ضعيفة أيضا ، وهذه صورة منها :

مالى أرى الأكمام لاتتفتح	والروض لايزكو ولاينفح
والطير لاتلهو بتدويمها	فى ملكها الواسع أو تصدح
والنيل لاترقص أمواهه	فرحى ولا تجرى بها الأبطح
والشمس لا تشرق وضاءة	تجلو هموم الصدر أو تنزح
والنجم لايزهر فى أفقه	كأنه فى غمرة يسبح
ألم يجئها نبأ جاءنا	بأن مصر حرة تمرح
أصبحت لا أدرى على خبرة	أجدت الأيام أم تمزح
أموقف للجد تجتازه	أم ذاك للاهى بنا مسرح
ألمح لاستقلالنا لمحة	فى حالك الشك فأستروح

وتطمس الظلمة آثارها فأنني أنكر ما ألمح
قد حارت الأفهام في أمرهم أن لمحوا بالقصد أو صرحوا

وحافظ فى هذه القصيدة صورة من الشاعر الوطنى الذى يحب مصر ، ويقف شعره على قضيتها ، ويراها كل شىء عنده ، ولا يفتح عينه على أمد بعيد . وهو بعد رجل موظف — كما ذكرنا — حريص على الا يصطدم بقوات الاحتلال أو بسلطان الحكام !

أما الزهاوى فهو شاعر ثائر فيلسوف ، عاش حياته كلها فى جدال وخلاف وخصام وصراع مع الانجليز والمستبدين الأتراك ، وطبيعته غاية فى الحماسة والقوة ، ولكنها حماسة تنحو نحـــو الوطنية العربيـة الخالصة ، فهو محدود بحدود وطنه وفطرته وطبيعته

وهذا هو فى مفتتح العام الهجرى الاسلامى يقول :

فمن لى بعام لا يشابه غيره أرى فيه أظفار البغاة تقلم
وأبخل أرض بالرجولة بقعة يضام الفتى فيها ولا يتبرم
اذا انت لم تألم من الضغط عاضبا فمن أى شىء فى حياتك تألم
أدير عيونى فى الوجوه فلا أرى سوى الذل مقروءا ولا أتوسم
من الناس آلاف يعضهم الطوى وفى كل ألف واحد يتنعم
اذا عجز المكروب عن شرح ما به فعل دموع العين عنه تترجم
أمن قام يشكو بثه فهو مزعج ومن قال يبغى حقه فهو مجرم
وأنى لا أدرى وأن كنت داريا اقومى تعاموا أم عن الحق قد عموا
بنى وطنى لا تسكتوا عن حقوقكم أليس لكم منكم فم يتكلم
ولا خير فى بدىء الفتى بجليله اذ كان عن عجز له لا يتمم

ولا فخر الا للذى هو ماجد ولا مجد الا للذى يتقحم

وما الحر الامن اذا ضيم لم يلن وان قال حقا فهو لا يتلعثم

والشاعر هنا وفى كل شعره عاطفى حماسى حاد العاطفة ، ولكنه محدود بالاستعمار وحده ، كل فلسفته تدور فى الأفق الضيق ، أفق التحرر من كل طغيان أو ظلم

أما فهم أقبال للاسلام فيختلف اختلافا بعيداً عن فهم شوقى له ، وفهم حافظ للوطنية ، وفهم الزهاوى للعروبة الحرة . ولن أصور لك مذهبه حتى أضع بين يديك شعره ثم نعقد المقارنة بين الشعراء الأربعة على نطاق واسع .

يقول اقبال :

ليس العاشق من يحرك شفتيه متأوها من الحب .

ان العاشق هو الذى يحمل العالم على كفه .

هو الذى يخلق عالمه بنفسه .

ولا يرضى بغير المجد .

كن مهيبا واحرق القش .

ما سوى الله باق .

أنت مسلم فعمر قلبك بالأمانى .

واجعل شعارك فى كل زمان الا تخلف الميعاد .

اعتمد على نفسك ، ولا تشتك من العالم .

لأنك لو غيرت نظرتك فالعالم يتغير لك .

أنظر الى نفسك .

فان قوة الطوفان كامنة فيك .

ان المسلم لا يعبد أحدا سوى الله .
وهامته لا تنحنى لاى فرعون على الارض .
ما الذى أباد استبداد كسرى وقيصر .
لا تزين مقامك على الشاطىء لان هناك فى الاعماق صوت الحياة .
فغص فى البحر ، وصارع الامواج ، فان خلود الحياة فى الجهاد .
ان نسبك أيها المسلم هو الدين .
ان العدة التى يمكن أن يفتح بها العالم .
لو تعلم فتلك هى القرآن وانه فى حوزتك .
أن اجتماع أولئك بالبطش والقوة .
أما اجتماعك فمستحكم بقوة الدين .
ان شعبكم متماسك بقوة الدين ، فاذا ذهب الدين ذهبتم .

* * *

هذا « اقبال » الشاعر الفيلسوف المؤمن ، الذى يفهم الاسلام فهما واسعا ، ويحب القرآن حبا كان بعيد الاثر فى نفسه وشعره وحياته ..

أنه يريد أن يعطى المسلم فى الشرق روح القوة ، ويريد أن يحمله على أن يرفع رأسه ويكون المجد ويصنع التاريخ الجديد .

انه أدب القوة يتمثل فى شعر اقبال ، فى صورة واضحة قوية .

ونحن نسأل الآن : لماذا اختلف اقبال عن شعراء عصره ؟

والجواب أن شوقى وحافظ والزهاوى استجابوا للصراع بين أوطانهم والمحتل وصوروا هذا الصراع ، اما اقبال فقد سبقهم خطوة أبعد ، لقد أراد أن يصنع مابعد التحرر من الاستعمار ، لقد أراد أن يضع الفلسفة الايجابية

لمقاومة الاستعمار والاستبداد ، آمن بفلسفة جديدة رآها المخرج الوحيد للشرق من آلامه ومتاعبه ، وهذه مرتبة لم يصل اليها شوقى أو حافظ أو الزهاوى !

لقد عرف شعراؤنا الرحلة والاسفار ، سافر شوقى واقبال الى أوربا وسافر حافظ الى السودان وسافر الزهاوى الى تركيا ومصر .. واتصل شوقى واقبال بالحضارة الاوربية فى أرقى مظاهرها ، والثقافة العربية فى أروع آثارها ، غير أن كلا منهما استجاب لها على صورة خاصة ، ومضى فى اتجاه يختلف عن اتجاه غيره .

أما شوقى فأحب هذه الحضارة وأعجب بها وأقبل عليها وارتضاها لمصر والشرق ، وأما اقبال فقد أقنعته الحضارة الاوربية بأن الشرق مصدر النور وبذلك جعلته يؤمن بنفسه وبلاده ، وأمدت مذهبه الفلسفى بتلك القوة التى دفعته الى أن ينشىء للشرق طابعا خاصا ، ويأخذ خير ما فى حضارة أوربا فلا يتورط فيها ولا يتجاهلها

نشأ شوقى واقبال فى بيئة الترف والقصور ، أما شوقى فظل متصلا بهذه البيئة فتمثلت فى شعره صور الارستقراطية ، وأما اقبال فقد نقله فهمه للاسلام الى نوع من الاعتدال والوسط فعبر عن روح الشعب وآلامه !

وعاش شوقى وحافظ الزهاوى يمدحون أصحاب السلطان ويهجونهم ويكتبون المراثى .. ويكتبون شعر المناسبة العابرة ، أما اقبال فقد سما عن المدح والهجاء ، وترفع عن كل شىء عابر ، ومضى راسا الى رسالته

كان شوقى وحافظ والزهاوى يكتبون شعرا عن الاسلام ، لكنهم يختلفون فى اساليبهم عن اقبال .

وكان شوقى يؤمن بالروحية ، ويتحدث عن المسيح ومحمد وموسى ،

ويمدح النبي ، ولكنه يفهم الاسلام على صورته التقليدية ويؤمن به على الأسلوب الموروث .

أما حافظ فقد كان الاسلام والدين فى شعره يسيرا عاديا . أما الزهاوى فقد كان ينكر الاسلام فى صورة المسلمين ، ويراه على الصورة القائمة عائقا عن الحرية والنهضة ، ولكنه اكتفى بهذا الاتجاه السلبي ، فاذا حاول التوجيه اندفع وراء بريق الحضارة وأسرف فى تأييدها .

أما اقبال فقد كان يختلف اختلافا كاملا عن هـــذه الصور ، كان خالصا للاسلام ، متجردا له ، وقد ابتدع أسلوبا جديدا فى فهم النهضة واليقظة التى يجب أن تظهر فى الشرق .

لم يكن اقبال شاعرا فحسب ، بل كان فيلسوفا ، واضح المعالم ،وكان سياسيا قوى العارضة ، ولسنا الآن فى معرض الحديث عن نضاله وكفاحه الوطنى والسياسى ، ويكفى أن نقول ان اقبال يتميز عن شعراء عصره . وجيله . بالهدف المحدود . والتفرد برسالة خاصة كاملة . عاش لها واستصفى لها فنه . وفكره . ووقف عليها عمله . وترك بها للشرق منارا ما زال يضىء وسيظل يضىء ما بقى الشرق والاسلام .

آمن اقبال بأن الشرق قد تجنب الطريق السوى الذى رسمه له الاسلام . هذا الطريق الواضح المبسط . وآمن بأن الانسانية غرقت فى فلسفات معقدة مضطربه . هى جماع منوع لا يستقيم على وضع محدد

وكان على يقين من أن الشرقيين قد أنكروا ذاتهم ووجودهم وأغرقوا فى الايمان بفلسفة القضاء والقدر . وآثروا النوم والتواكل فى الوقت الذى غرق الغربيون فيه فى لجة من الشك والفساد والانحلال .

فكان لابد للشرق من دعوة الى اليقظة . وكان اقبال قد وطن نفسه على

هـــذه الدعوة . ومضى اقبال يدرس . درس تعاليم « نيتشه » فى السوبرمان و « برجسون » فى التطور المبدع وكانت « فى النقد » . وقرأ جمهورية أفلاطون ، وطالع أدب الفرس . وقرأ شعر حافظ الشيرازى . وأعجب بمذهب جلال الدين الرومى . ثم قرأ القرآن فى حدود القاعدة التى وضعها له والده « كأنه أنزل عليك » وأعجب بالغزالى وأحب مذهبه فى تهذيب النفس وتثقيفها .

وأقام من خلاصة هذه المذاهب والدراسات . مذهبا جديدا . يستمد من الاسلام والروحية قواعده . وأضـــاف خير إليه ما فى الحضارة الديمقراطية والثقافة الغربية . فأنشأ فلسفة متفائلة باسمه . كلها ايمان وبناء وقوة . وقال انه ليس للاسلام أى حدود مكانية . أو نهايات زمنية . وان الاسلام بذاته وطن المسلمين قبل أوطانهم . ودعا الى « معرفة النفس واطلاق قواها . وأخذها بالتربية والتوسيع . تربية تقوم على أساس التحرر من كل قيد » .

وعارض أفلاطون الذى كان يقول ان غاية الانسان الموت . وقال ان غايته هى الخلود . وأوضح الفرق بين ديمقراطية أوربا وديموقراطية الاسلام وقال « ان أوربا أنشأت ديمقراطيتها من التجديد الاقتصادى للهيئات الاجتماعية ولـكن نيتشه على حال كل يتنكر حكومة الجماعة . ويؤسس جميع الثقافات العالية على ظهور وتثقيف «سبرمان » ولـكن هل العامة حقا موضع القنوط . ان الديموقراطية الاسلامية لم تنشأ من تحديد الفرص الاقتصادية . بل هى مبدأ روحانى معناه الاعتراف بأن كل انسان مركز للقوى الخفية التى يمكن أن تـكشف امكانيتها بتربية طراز خاص من الاخلاق والسجايا . وبنـاء على ذلك فالاسلام قد خلق من عامة الناس المثـل العليا فى الحيـاة والقوة ... أو ليست اذن الديمقراطية الاسلامية فى القرون الأولى الا دحضا عمليـا لأفـكار نيتشه ؟ »

وكان يقول « ان قوة الغرب ليست فى الصنج والرباب والرقص الخليع وليست فى سحر الوحدة المتألقة ... وليست فى الاتحاد ونبذ العقيدة . انما قوة الغرب فى العلم والفن وفى مشاعل الثقافة المضيئة . وليس فى استبدال زى بزى أى حكمة . وليس اللباس القديم بمانع من العلم والفن »

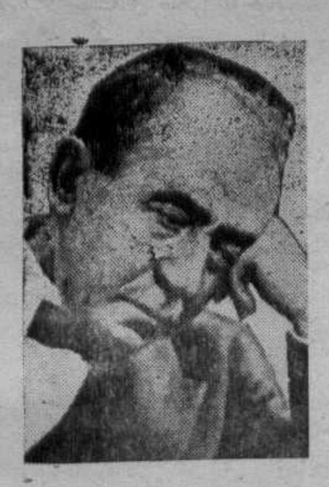
وغاية القول أن مكان اقبال بين شعراء عصره شوقى وحافظ والزهاوى مكان مرموق . لايمكن انكار ضخامته . فهو ليس الشاعر الاسلامى التقليدى ولا الوطنى المحدود . ولا القومى الثائر ...

وانما هو ذلك الشاعر ذو الفكرة الواسعة العميقة . هو شاعر القوة والحق والحرية كما جاء بها الاسلام .

ورسالته هى أن يربط بين الدين والفلسفة . والشرق والغرب . والروحيه والمادية على أصول وقواعد ثابتة ذات مدلول شامل . توجه المجتمع على أساس روحى . وتفتح أمام الشرق باب الأمل فى مستقبل ضخم كريم . وحضارة عالمية ترمى الى تحرير الفرد والمجتمع

وهذه كلها معان بعيدة جدا عن آفاق شوقى وحافظ والزهاوى . الذين عاشوا فى المحيط الضيق . والحياة العابرة . وعرفوا الفن الذى لم يعرفه اقبال فن المديح !وخير ما نختتم به البحث أن نورد كلمة أحد زعماء الهندوس فيه وهى قوله « ان اقبالا قد وضع المصباح على باب السلم . ولم يحجب نوره عن غير المسلمين . بل استطاع الجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح » !

شوقى



لست أدرى هل كان يصل شوقى الى ذروة الكمال الفنى لو لم يتح له أن ينفى ويقضى فى الأندلس خمس سنوات ثم يعود خلقا جديدا . وقد بعد عن القصر أو كاد . ومضى يشق طريق العمل الفنى الخالص حتى اذا ارتفع به السن أوفى على قمة المجد بأن ابتدع هذا اللون الجديد من الشعر التمثيلى الذى لم يكن معروفا من قبل فى اللغة العربية .

والحق أن نفى شوقى هو أخطار حادث فى تاريخ حياته كله . أثر فى مجرى ادبه وفنه وشخصيته جميعا . وقد أجاب عن ذلك فى الهلال (عدد نوفمبر ١٩٢٩) قال : اذا عزى الى الحرب الكبرى — يقصد الأولى — كثير من التغييرات والانقلابات فى انظمة العالم وشئونه الاجتماعية والأدبية فانى اغزو اليها هذا الاثر العظيم الذى احدثته فى مجرى حياتى . وكان له فضل كبير فيما نلته من مكانة فى الادب . وامتلاك لناصية الشعر العربى .

ذلكم انه لما وقعت الحرب الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الفريد وانضمت تركيا إلى الالمان عمدت انجلترا إلى قلب نظام الحكم فى مصر. وأعلنت انتهاء حكم الخديو عباس حلمى الثانى . ثم أخذت تنفى عن مصر كل من لهم صلة به ، فأمرتنى بالرحيل إلى اسبانيا . فجمعت عائلتى . واصطحبت مكتبتى وسائر مرافقى . وغادرت مصر الى برشلونه . وهو ثغر على شاطىء البحر الأبيض يشبه مرسيليا فى المدنية ويكاد ينم عما كان فيه من سالف الحضاره العربية فى عهد الدولة الاندلسية . فادخلت أولادى المدارس الراقية ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربى فى غير أوقات النزهة ومشاهدة السينما فاستوعبت منها مالم اكن قد استوعيت وطالعتها كلها حتى اكاد أقول انه ليس فى الأدب العربى كتاب لم استوعبه خلال السنتين التى مكثتها باسبانيا . وقد ساعدنى فى ذلك طبيعة الجو اللطيف الذى يشبه جو الاسكندرية وجمال المناظر التى تحاكى ضواحى الاستانة فى رشاقتها ونظامها .

فى هذا الجو . وفى ذاك الوسط الكريم . نشأت نشأة اخرى فى الأدب العربى . واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام . وتوفرت على رياضة الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها فحصلت على ثروة لم افز بها من قبل ... »

* * *

ويأتى بعد هذا فى حياة شوقى ذلك التحول العجيب فى فن الشعر نفسه فهذا الشاعر الذى قال فى شبابه نهج البردة وشعر المديح للرسول سائغا شفافا وكأنما استمده من صوفية عميقة وايمان خاشع . هو الشاعر الذى قال فى سن الستين هذا الشعر الغرامى والوجدانى والعاطفى الرائع . وهو الذى صور حب كليوباترة وحياتها وصور جنون قيس وهيام ليلى . واستطاع أن يصل

إلى اعماق العاطفة الحنونة المحرومه وهذا الهيام فى الفلوات والبيد .

ولعل هذه الظاهرة الغريبة لم تكن موضع عناية كثير من الناقدين أو المؤرخين . وهنا نطرح سؤالا بالغ الاهمية فى حياة شوقى وفنه ؟

هل يمكن أن يكون شوقى قد وصل الى هذا الابداع فى وصف الحب دون ان يكون قد ذاق الحب . ؟ الحق أنه ليس بين أيدينا ذلك الدليل المادى الواضح . وقد ذهب الكثير من النقاد إلى أن تصوير شوقى للحب انما هو لون تقليدى لا صله له بحياته ولكنى لا أرى هذا الرأى . وانما اعتقد موقنا بان شوقى عرف الحب فى صور مختلفة واتيح له ان يشرب من هذه الكاس وانه حرم كثيرا وامده هذا الحرمان بهذه الصور من اللوعة والشوق التى تبدو فى ثنايا شعره الوجدانى . ولعلى لا ابعد عن الحقيقة اذا قلت ان شوقى قد عرف فى الاندلس وجوها . تقبض بالجمال ونفوسا تفيض بالحنين إلى أصلها العربى .

وهنا فى القاهرة فى هذه المغانى التى كان شوقى يغدو اليها ويروح . كم من وجه وسيم وروح نبيل هفا نحو الشاعر الذى كان موضع الاعجاب والتقدير فى كل ندوة أو ناد وهناك فى باريس حيث قضى الشاعر شطرا من شبابه وعاد اليها مرات . هل تركته مدينة النور دون أن تأخذ منه خفق القلب ووجيب الضلوع ..

إن شوقى يسجل فى حديثه عن الاندلس هذه العبارة التى تحمل الف معنى « هذا الى اخلاق الاهالى التى تميل إلى الاخلاق الشرقية العربية مما جعل بينى وبينهم الفة حسنه »

اليست الالفة نوع من الحب . ويقول الأستاذ حسين شوقى فى مقاله «أبى فى الأندلس» على اثر زيارته للاندلس « .. وذهبت فى الليل الى (البرالو) وهو حى برشلونه الفنى كالحى اللاتينى فى باريس . وكان مشهوراً بجوه المرح

وكان ابى يذهب هناك احيانا . اذ كان يسر للناظر البوهيمية التى تشاهد فيه .. »

فاذا قيل فى الرد على هذا ما قاله بعض النقاد « ان أول ما تلحظه على « مجنون ليلى » الذى صنعه شوقى البرود والركود . وانك لا تلمح مرة واحده فى مجنون ليلى تلك الحركة اللاعجه ولا تلك الثوره العاصفة » قلنا أن مجنون ليلى شوقى فيه من عمق الحب قدر ليس بالقليل . ولعل عذر شوقى انه صنع هذه الشخصية بعد الستين ويكفيه فى هذا السن أن أحيا ثورة الحب على هذه الصورة الرائعة .

ولم يكن من اليسير على شوقى — وهو فى مثل وصفه ومركزه وفى هذه الفترة من التاريخ بالذات — ان يجهر بالحب الا فى صورة قصص مسرحية أو أغنيات لها مناسبتها وطابعها .

ولا يبعد أن يكون شوقى قد أحب مع ارتفاع السن . وهذا النوع من الحب بعيد الاثر ولعله هو الذى دفعه إلى ان يغلفه فى صورة قيس وفى صورة انطونيو اذ لم يكن من الميسور له أن يكشف عنه فى صراحة ويجهر به . وقد عرف هذا اللون فيكتور هيجو وجوته . ويقول مؤرخه أحمد محفوظ انه « لم يعرف اللوعة فى الحب قط . وإنما هى رغبات عاطفية كان يستعين عليها بماله . ثم ينصرف عنها . وكان لا يدخر مالا فى سبيل الوصول إلى غاياته ولم يعرف عنه أنه تعلق بامرأة وتدله بها ولا ننكر عليه أنه أحب ولكن حب القادر على الحبيب المتمكن من الوصول » .

وهو فى هذا الميدان أقوى من البارودى . وانفذ فى تصوير العاطفة واشاعاتها المشرقة القلقة . وان كان يبدو أن شوقى لم يعرف لوعة الحب او حرمانه على الصورة العاصفة . ولعل هذا مما يجعلنا نظن أن هذا الحب جاء متأخراً قليلا .

وقصيدة شوقي التي صور فيها انطواء صفحة شبابه كان ابرز ما فيها حزنه عن الحب :

شيعت أحلامي بطرف باك ... ولمت من طرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردة ... امشي مكانهما على الاشواك
وبجانبي واه كان خفوقه ... لما تلفت جهشه المتباكي

وتعطى أثار شوقي صوراً للعاطفة متناثرة منوعة . وقد غلب فيها جانب التضمين على جانب التصريح ولكن قصيدته هي التي نظمها في لبنان عام ١٩٢٥ لايحتاج إلى دليل فهي صريحة تخفف فيها الشاعر من وقاره وغلب عليه لون من التحرر غير معهود في قصائده وهذه أبيات منها :

واغر كحل من مها « بكفية » ... غلقت محاجره دمي وعلقته
لبنان دارته وفيه كناسة ... بين القنا الخطار خط نحيته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل ... فاتيت دون طريقه فزحمته
فازور غضبانا وأعرض نافراً ... حال من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابي إلى اترابه ... وزعمتهن لباتي فاغرته
فمشى إلى وليس أول جؤذر ... وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاء من سحر الجفون فصادني ... واتيت من سحر البيان فصدته

* * *

كان شوقي قليل الكلام . ولم يكن ممن يتصدرون المجالس . بل كان منطويا يوجز القول ويطيل الصمت . وكان من حوله يهابونه ويتكلمون معه

فى حذر ولا يرى شوقى استاذاً له غير اسماعيل صبرى . ولم يذكر شاعراً فى أعجاب كما ذكر المتنبى اذ كان يفضله على جميع شعراء العربية وقد عارضه كما عارض أبى العلاء .

ولقد ولد بباب اسماعيل(1) وعاش فى ظل الغنى واليسار ، فلم يتصل فى كثير ولا قليل بالشعب ولا بالحياة العامه . وقد شغل شوقى نفسه فى فجر حياته بمديح الملوك والخلفاء . ثم تحول إلى مدح الرسول وصاغ فى ذلك قصائد غاية فى الروعة والقوة وقد كان ازدوار شوقى عن المجتمع واعتزاله وحيـاته المترفة هو المغمز الذى غمزه به نقاده لانه عجز عن مشاركة الشعب فى آلامه . غير أن شوقى لم يلبث أن خرج عن شعر القصور والمناسبات بعد عودته من المنفى . وعندما اكتشف شاعريته وآمن بهـا . ويروى لطفى السيد فى حديث للدكتور طه حسين قوله «كنت التى حافظ أول عهده بالشعر وكان يسمعنى كثيرا من شعره فلا يعجبنى فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هـذا العناء فلم يخلقك الله شاعراً ولكنه لم يقبـل نصحى وحسنا فعل فما زال يكدح حتى أرغم الشعر على أن يعنوا له ويصبح شاعراً وكنت شديد الاعجاب بشعر شوقى اقرؤه فى لذة تكاد تشبه الفتنة واثنى عليه كلما لقيته فما زال شوقى يكسل ويقصر فى تعهد شعره حتى ساء ظنى بشعره الأخير .

قال انطون الجميل انه لم يشد الى قيثاره الشعر وترا جديدا ولكنه عرف كيف ينطق الاوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبه . وأوتار العودة معدودة وهى عدا ونوعا ، تحت أنامل العازف . وهكذا كانت أوتار القيثاره القديمة فى يده ، تخرج الحانا مستجده من كل موضع .. »

وقال خليل مطران «ان شوقى لا يكد فكره فى معنى أو مبنى وكثيرا

(1) وتوفى فى ١٣ اكتوبر ١٩٣٢

ما يعارض المتقدمين ولا يعسر عليه أن يبـذهم . وشعره هو شعر التفوق والعبقرية »

وقد وصف النقاد طبيعة شوقى بأنها طبيعة معقده وردوا ذلك إلى أن فيها من الترك واليونان والشركس[1] . وأن كل هـذه الاثار وما فيها من طبائع اصطلحت على تكوين نفس شوقى . هذه النفس بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الاشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة . وهى بحكم هـذا التعقيد والتركيب خصبه كاشد ما يكون الخصب غنيه كاوسع ما يكون الغنى ..»

واجمع النقاد على وصفه بأنه أعظم شاعر فى العربيـة بعد أبى الطيب المتنبى .

وقال عبد العزيز البشرى فى وصفه بأنه مفرط فى جب نفسه . شديد الولع بها . مفرط فى حب بنيه . شديد الولع بهم . وانه بعد ذلك شديد الرقة للناس جميعا . اضعفه الحب وفل من عزمه فلا يستطيع أن يشهد مشهدا مؤلما ولا يستطيع أن يسمع قصيدة حزينة . ولو قد عرض لسمعه أو لبصره شىء من هذا لولى منه فراراً . ولملىء منه رعبا . وهو ولوع بنفسه هيوب من أن تعتريها الايام بمكروه. »

وقـد كان شوقى يجود بشعر الحكمة يطلقه على سجيته دون تفكير وعلى ما كان عليه من بلاغة القصيد . لم يكن يلقى شعره أو يجيد الحديث فى مجالسه فكان قليل الكلام كثير الاطراق . وغلبت عليه النزعة الدينية القدرية وبدا حبه لال البيت واضحا فى قصيدة . كما بدت عاطفته للشرق والاسلام والعروبة ظاهرة فى اثاره حتى كان شعره فى سوريا وقوداً للثورة السورية بشهادة السوريين أنفسهم .

---

(١) طه حسين .

وقد وصف أحمد عبد الوهاب سكرتيره الخاص طريقة نظمه للشعر فقال « لقد لازمته فى ليله فى بوفيه « دى لابرد » على كوبرى قصر النيل وكان ذلك قبل الحرب فشرع يعمل فى قصيدة النيل التى مطلعها

من أى عهد فى القرى تتدفق   وبأى كف فى المدائن تغدق

وكان كل نصف ساعه يركب مركبة خيل ويسير فى الجزيره بضع دقائق ثم يعود إلى المنضدة التى كان يجلس عليها فيكتب عشره أو اثنى عشر بيتا ... وهكذا انتهت القصيدة فى ليلة الا بيتا استعصى عليه ولم يتمكن منه الا بعد يومين ..

« ... وكان إذا شغلته أشياء عن قصيدة طلب اليه عملها . ولم يتذكرها الا قبل ميعادها بساعات أو عند طلبها ابتسم وطلب ان يتناول صفار ثلاثه من البيض التى يشربها نيئه . ثم يبدأ فى النظم فلا تمضى ساعة حتى يتم القصيده[1] ..

وكان يملى فى رواياته الاربع : قمبيز وعلى بك البخيلة وهدى فى وقت واحد ويشهد الدكتور طه حسين بأن شوقى أدخل فى اللغة العربية وفى الشعر العربى خاصة بهذه الروايات فنا جديداً لم يسبقه أحد اليه وهو فن التمثيل الشعرى .

* * *

خرج شوقى من القفص الذهبى عند ما قال قصيدته التى نفى من أجلها ..

---

(١) وصفه أحد أصدقائه بانه كان يفيض فى شئون من يجلسون معه « حتى نحسبه أحدنا . ثم ينقطع كل هذا فجأة ويرجع الى نفسه فيصبح ليس معنا فهناك تسمع همهمة كأنها آتية من غور بعيد ثم لايزال بعد ذلك يمسح على جبينه بيده ثم يهب واقفا ويتركنا من غير أن يبتسم أو يسلم .

ولم يعد اليه مرة أخرى ولعل قصائد شوقى عن المنفى هى أصدق قصائده تصويراً لا حساسة ومن أدقها تصويراً قوله :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ... ماله مولعا بمنع وحبس
احرام على بلابله الروح ... حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالاهل الا ... فى خبيث من المذاهب رجس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

ويصور انقباض الناس عنه قبيل منفاه :

شكرت الفلك يوم حملت رحلى ... فيا لمفارق شكر الغرابا
فانت أرحتنى من كل أنف ... كانف الميت فى النزع انتصابا

أضف إلى ذلك قطعته النثرية عن قنال السويس فهى فيض نفس ملئت بالاسى والحزن والشعور بالظلم .

وقد سبق شوقى اترابه حافظ والبارودى بالشعر الغنائى والمسرحى الذى تفرغ له فى آخر أيامه .

ويلتقى شوقى مع البارودى فى الاتجاه الروحى فكلاهما قد نظم بردة البوصيرى وصور عاطفته فى حب الرسول .

وكان حافظ وشوقى فرسا رهان . فقد ظلا يتصارعان حياتهما حتى إذا جاء الموت ، قضيا فى عام هو عام ١٩٣٢ الذى غيب الشاعرين فى التراب .

وكان حافظ يحس بقوة شوقى وعظمته فيذعن ويبايع له فى مهرجان (٢٩ ابريل ١٩٢٧)

أمير القوافى قد اتيت مبايعا ... وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فلما توفى حافظ فى حياة شوقى نعاه على هـــذا الاسلوب من الإيثار

قد كنت أوثر أن تقول رثائي   يامنصف الموتى من الأحياء

واتصل شوقي وهو فى المنفى بحافظ يقول :

يا ساكني مصر انا لانزال على   عهد الوفا وإن غبنا مقيمينا

فرد عليه حافظ يقول :

عجبت للنيل يدرى أن بلبلة   صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

... وكانا مع ذلك مختلفين أبعد اختلاف . كان منهجهما متباينا . أما حافظ فكان فى أول أمره قويا غاية القوة ، كان شاعر الشعب والمجتمع ولما عاد شوقي من منفاه تحول ومضى يخطو فى قوة ويقفز . حيث بقى حافظ جامداً . والتهم شوقى فى منفاه كل اثار العرب ولم يدع كتابا لم يقراه . فاضاف ذلك الى شخصيته الادبية قوة عارمة . فى الوقت الذى كان حافظ يقضى لياليه سميرا يتوسط المجالس وينثر الفكاهات والأحاديث . وبيته لامكتبه فيه الا بضعة أجزاء من الأغانى . وإن ظل حافظ يبهر الناس بطريقة القائه ضيف الى معانيه قوة . وروعة بصوته الملىء ونبراته الجهيرة .

يقول المازنى « وأنا أعتقد أن شوقى مدين لخليل مطران بأ كثر مما يعرفه الناس — ولا سيما فى صدر حياته — فان خليل مطران هو أول من أدخل شيئا من التجديد على الشعر فى مصر وتبعه شوقى حينا » وروى طاهر الطناجى أن حافظ قال فى بعض مجالسه « والله أن لشوقى لشاعر وانه لاشعر منى . أقررت بهذه الحقيقة فى شبابى وكهولتى . ولا أريد أن أكفر بها فى شيخوختى .

وقد وصفه الموسيقار محمد عبد الوهاب بانه «كان مرهف الحس لدرجة أنه يشعر بالكوارث قبل وقوعها فيداخله الخوف . فمثلا كان لايعبر طريقا إلا إذا كانت السيارات القادمة تبعد بمسافة كبيره . وكان أيضا يخاف الناس

فاذا اندفع اليه شخص ارتعش واضطرب ، ويضاف إلى هذا أن شوقى كان يحب الحياة حب جما ويكره الموت ويخافه .

* * *

وبعد فقد كان شوقى يغار على شعره ويكره النقد وينفر منه وله فى ذلك قصص ويبدو أن هذه كانت طبيعته .

وقد حمل عليه العقاد والمازنى وطه حسين . ثم تحول المازنى وطه عن رأيهما وبقى العقادعلى رأيه . وهاجم هيكل شوقى بعد أن كتب مقدمة الشوقيات وهو بهذا الهجوم قد تحول عن رأيه الذى أعلنه فى المقدمة .

وغاية القول أن شوقى جمع فى شعره بين النواسى والمتنبى على فترات حياته فى شبابه والثانى فى شيخوخته . محاولا أن يكون شاعر الحكمة وشاعر الحب والجمال ولكنه مع ذلك كان نسيجا وحده يمثل عصره وشخصيته .

ولقد اتيح لشوقى بعد وفاته أن يمعن فى السير قدما فى طريق الخلود بعد أن جرى مجرى الغناء وانتقل الى الألسنة التى لم يكن من اليسير لها أن تطالعه أو تلم به فى دواوينه .

وقد أكسب هذا شوقى بعد أن أمعن فى طريقه إلى جوار الله بريقا ولمعانا أضفيا على ذكراه قوة جديدة ومهد له سبيل الخلود على نحو لم يكن ميسوراً فى حياة الشاعر .

حافظ



الشاعر ولد على ضفاف النيل عند ديروط . وعاش حياته أعزبا منطويا على نفسه فى دار الكتب عشرين عاما بعد أن عاد من السودان . كان خلالها مقيداً بقيود الوظيفة لايستطيع أن يقول أى شىء ....

نشأ فى بيئة شعبية ، ومات والده صغيراً ، وذاق طعم البؤس واليتم والخصاصه ردحا من حياته .

عاش(١) حياة الناس واضطرب فى بيئاتهم . وخبر آلامهم واحزانهم وخفق قلبه الرقيق لهم .

ولد وفى نفسه تلك الجذوة الشاعرية الملهمة الفياضة ولكنها ظلت خافتة نائمة لأنه لم يكن قد آن وقت ثورتها . وأغلب الظن أن حافظ قد حبس لها وجمع

---

(١) جريدة القاهرة ٢٩ سبتمبر ١٩٤١ عن مقال للمؤلف

ما صادفه من الوان التأمل والدرس فى أناه واصطبار .

وظل هذا الشاعر الصامت ينازع نفسه غايات الحياة وأسباب المجد وينفر من السودان والحرب والجيش . ويود لو تهيأ له أن يعود إلى مصر وهو فى حنانه وشوقه وانزعاجه وثورته إنما كان يرسم الخطوات الأولى نحو ذلك المجد .

وقد اتصل حافظ فى حياته برجلين كانا من كبار الرجال فى عصره هما محمد عبده وسعد زغلول .

واستمرت صلته بالشيخ عبده طويلا . وكان قد كتب اليه من السودان يطلب منه أن ينقل إلى القاهرة بعد أن ضاق بالغربة . ثم ظل متصلا به أربعين عاما . وقد اثر عن الشيخ عبده قوله اننى صحبت حافظ أربعين عاما فلم استطع أن أهديه ولم يستطع أن يضلنى .

ومعنى هذا أن حافظ على صلته القوية بالشيخ عبده لم يتأثر به ولم يستفد منه . وفى حياة حافظ عقدة غير واضحة.ولم يستكشف بعد . فقد كان نواسيا إلى أبعد حد . وقد حوى ديوانه بعض قصيده فى مناجاه الغلمه والخمر . وقيل انه تزوج ثم طلق بعد أربعين يوما وعاش بعدذلك أعزبا ما بقى من حياته .

فاذا أردنا أن نعرف أثر المرأة فى أدبه وفى حياته شق علينا ذلك ولم نجد السبيل اليه إلا فى بعض أبيات كان يفتتح بها قصيدة وفق ذلك الأسلوب التقليدى فى الاستهلال بالنسيب .

ويعد هـذا الجانب من أغمض الجوانب فى حياته . ولم يتناوله أحد من الذين كتبوا عنه ولم يلق عليه أى ضوء حتى ليمكن القول بأن حافظ كان بعيدا عن محيط المراه وانه لم يعرف الحب ولا هذا اللون من العاطفة . ولعل مرجع هـذا الضيق والبؤس واضطراب الأعصاب يكون نتيجه لهذا

* * *

وقد وصفه عبد العزيز البشرى[1] بأنه خفيف الظل عذب الروح حلو الجديث حاضر البديهة رائع النكتة « اذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك انك فى بستان تقطعت جداوله . وهتفت على أغصانه بلابله » .

« وهو أجود[2] من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطا مما أصابت يده من الأموال لكان اليوم من أهل الثراء على انه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس حتى إذا طالت يده الالف جن جنونه أو ينفضها فى يوم إذا استطاع . . ثم هو مابرح يطلب البؤس طلبا ويتفقده تفقداً ...

« وهو ضيق الطعن قليل الصبر سريع الغضب . له صوت جهير ضخم ، رائع المقاطع فاذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات .. »

ويرى خليل مطران أن حافظ يجيد الرواية من قصائد العرب وإذا فاته الابتكار فى المعنى فانه لايفوته فى التصوير . « وهو مؤثر فى شعره السهل الممتنع . وقد اتخذ أسلوبا جعل الشعر قريبا إلى اذهان الجمهور وأذواقه وشعره هو شعر البيان الناصع » .

وقد وصف نفسه بقوله « هناك عوامل تجعلنى أجيد [illegible] وهى أن أكون فى حالة من الشجن تجاوز الحزن أو أكون متعجلا مض[illegible] . أو أكون فى أرق . أما الصفاء والأنس والفرح والسير فى الرياض و[illegible] والشجر

(١) توفى حافظ فى ٢١ يوليه ١٩٣٢

(٢) روى مطران فى الهلال أن حافظ كان كريما فى بيته مضيافا .

فيحدث فى نفسى حالات لا تواتينى على النظم . فانا لا أجيد القصائد فى التهانى نفسها إلا وانا حزين . وإنى اؤمن بأن لكل شاعر شيطانا لأنى أكاد اسمعه يهمس فى اذنى المعنى وأحيانا ينصرف فيغلق على . وأنا اقيد همساته . بيت أكتبه فى القهوة واخر أكتبه وأنا بالقطار وآخر وأنا أحادث الأصحاب .

وأكبر عوامل الافساد للشعر أن يطلب منا الشعر » .

وأحب قصائده إليه غادة اليابان وقصيدة أوجينى وذلك لسهولتهما « لأن السهولة عندى مبدأ من مبادىء الشعر وكثيرا ما يخطر لى المعنى الجليل فاتركه لأن الألفاظ لا تؤاتينى » .

وكان يردد أمنية غالية اذا هيىء له العمر . ان يحذف من ديوانه الشعر التجارى فهو كان يعترف بأن فى شعره جانب غث يجب أن يطويه عن الناس

وكان أفضل الشعراء عنـــده أبو نواس . ثم البحترى وأبو تمام « واست أحب المتنبى ولكنى احترمه وآخذ البحترى بالحضن . وأحب الجاحظ وأحب الأغانى » وقد حفظ فى شبابه قصة عنترة التى يرويها شاعر الربابة . ولحافظ قصيدة فى ثلاثمائة بيت انشأها فى هجاء صدقى وعهده لم يعثر عليها كاملة .

ويلتقى البارودى مع حافظ فكلاهما دخل المدرسة الحربية وانتضى السيف وأحب الشعر وأوغل فيه . غير أن البارودى اشتغل بالحرب فكان جنديا شجاعا عاملا. وظل كذلك إلى آخر حياته .أما حافظ فقد هجر الجندية بعد وقت قصير وآثر عليها حياة الموظفين فى نوادى القاهرة وسهرات قهوة متاتيا مع نرجيلته .. وهو يرسل حديثه ونكاته مع عبد الحليم المصرى وأمام العبد وعبد العزيز البشرى .

ويختلف البارودى عن حافظ فى أنه اشتغل بالسياسة . وكان معروفا بالدهاء .

كما اشترك فى الوزارة وشهد ثورة عرابى وهو القائل . .

وانى لامرؤ لولا العوائق أذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وهما متفقان بعد ذلك فى إيثار الجزالة والاعجاب بالعبارة والعناية بالصياغة .

وقد كان حافظ قليل الحفل لشعره مبعثرة . ملول الطبع مشتت الأوزان والقصائد ويغلب أن مصدر ثقافته هى تجاربه فى الحياة ودراساته وتأملاته .

وقد كان يشعر بالغربة وهو على ضفاف النيل :

أيها النيل كيف نمشى عطاشا فى بلاد رويت فيها الأناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الأواما
إن لين الطباع أورثنا الذل وأغرى بنا الجفاة الطغاما

وقوله فى أكثر من موضع يصف هـذا اللون من البؤس القاتم الذى يلم بنفسه بين حين وحين . ولعل مصدره انصراف حافظ عن الحياة الوجدانية فى محيط الحب والمرأة .

والليل أرشده أبوه لشقوتى وكذا البنون على هوى الأبناء
عين مسهدة وقلب واجف نفس مروعة وجيب خال

* * *

ويختلف حافظ عن مطران الذى كان المجدد الأول فى الشعر العربى الحديث هو الذى دفع حافظ وشوقى إلى التحول والتطور .

ويلتقى حافظ معه فى أنه لم يتزوج .. ولكنه التقاء فى المظهر لا فى اللب . لقد أمسك مطران عن الزواج مخلصاً لذكرى حب كان حب حياته كلها ومصدر الهامه فى شعره . وقد ماتت عذراء وهى صاحبته ولم يعرف قلبها حب إنسان غيره فقدصدم فى آماله وحبه فى أوائل العقد الرابع من عمره .

ويخيل إليك عندما تراه « إنه أدرك جميع حقائق الحياة فاستوى عنده حلوها ومرها . وهو يلتمس أعذار المخطئين قبل حسابهم عليها . يغضى عن الاساءة ويتناسى الهفوات . ولا ينسى صديقه وإن طال بينهما الفراق » .

ويقول مطران « إننى أنظر إلى العالم على إنه مسرح يتداول الممثلون الظهور فيه فأنا أشاهد كل ممثل . واسمع كل ما يقال . على ان استخلص من ذلك ماشاء لى من العبرة والأسوة .

ولقد أحب هذا الرجل النحيل الضامر حباً واحداً عشرون عاماً كاملة :

احبك حتى لا سرور ولا منى   ولا شمس إلا أن أراك ولا نجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله   جميلا وقيسا والذين استشهدوا قدما
ولو لم تكن فى الموت سلوى أخافها   لا حببت حتى الموت فيك ولو ذما

وقصيدة منديل الحبيبه تكشف عن هذه العاطفة الحارة :

أعدليها المنديل ذكراً محببا   وانطق به الطيب الذى فيك مطربا
فما بك من نشر فى القلب مثله   طواه الهوى قدما وما زال طيبا
ولم عرضت لى غانيات فعفتها   وصنت ضميرى واللسان المشببا
ولم بلد وافيته متلهبا   فما درته أدمى فؤداً وأكابا
مازال هذا الحب فى مؤيداً   مكينا نبت عنه السنون ومانبا
مازلت يا منديل ليلى ملازمى   تنشقنى الذكر نسيما مطيبـ

وأمنية مطران : الحياة إلى الساعة الأخيرة من العمل . والموت متى جاء ساعته بلا وجل .

* * *

وهو عند طه حسين زعيم الشعر العربى المعاصر واستاذ الشعراء العرب المعاصرين — لايستثنى منهم واحداً ولا يفرق بين المقلدين والمجددين وانه حمى حافظ من أن يسرف فى المحافظة وشوقى من أن يسرف فى التجديد

وصف مطران دوره فى التجديد (الهلال — نوفمبر ١٩٣٣) «أردت التجديد فى الشعر منذ نعومة أظفارى . ولقيت دونه ما لقيت فى عنف ومناوآه . وليس هنا محل وصف الالام التى عانيتها للبواعث التى انبعثت منها نوازع الذين حاولوا قطع السبيل بضع سنين .

« . . وعدت إلى الشعر وقد أنصج الفكر لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر فشرعت انظمة لترضيه نفسى حيث اتخلى . أو اتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى . متابعا عرب الجاهلية فى مجاراه الضمير على ومراعاه الوجدان على مشتهاه موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب .

لا أخشى إستخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب . وذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها . . » وقال مطران فى حديث له(١) . إنه عزم على مفارقة الشعر إذا لم يتهأ له فيه مذهب جديد . وظل يجاهد حتى تحقق له ذلك .

وقد اتفق لحافظ ومطران أن يترجما الاثار الغربية فترجم حافظ البؤساء وترجم مطران روايات شكسبير .

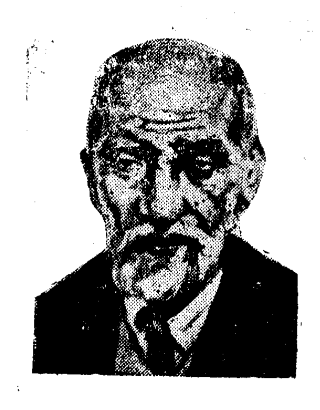
(١) مجلة كل شىء : ٨ ديسمبر ١٩٢٩ .

وهنا يبدو مدى الفارق بين حافظ وشوقى ومطران وقد جمعهما الزمن فى فى جيل واحد . كل له طابعه وطريقته وحياته الخاصة واتجاهه الشعرى . ومعالمه النفسية الواضحة .

ان مطران هو أوضحهما من ناحية الطبيعة النفسية فقد كان حبه واضحا واتصاله بالمراة بارزا فى صورة قوية رائعة .

وعاش حافظ بعيداً عن هذا الميدان يطوى أيامه وفى نفسه ذلك البؤس الذى ما أظن أن مصدره الا خلو حياته من المراه التى كان يعزف عنها .

الزهاوى



قــد انى يامنيتى أن تعودى ... بى إلى ما كنت قبل وجودى

ليس من هذا الموت يا نفس بد ... فهو للناس من تراث الجـدود

يا امانى فارقينى ويا نفس وداعاً ... ويا حشاشة جـودى

لا تخافى على فالموت سهـل ... لا كما ينعتونه بشـديد

لا تخافى فالموت ليس على الأرض ... ولا فى سمائها بجـديد

لهف نفسى على صبابه عيش ... لولاك لم يكن برغيـد

لست أدرى اللفناء سنمضى ... بعـد ما نموت أم للخـلود

إننى فى شك وإن ملأ وسمعى ... بوعد يروونه ووعيـد

ولعـل الصبـا تمر رخاء ... فوق ملحودتى فتنعش عـودى

لا أنيس ولا نسيم ولا نور ... يزيل الظـلام من ملحودى

يوم لا تبصرى الربيـــع ولا   تصغى لانغام البلبل الغريد
يوم لا تطلع النجوم علينا   باسمات من السماء كخود
يوم لا يسفر الصباح لنا   من جانب السماء قائما كعمود
يوم ايدى الردى تجـــردنى   من كل مالى من طارف وتليد

هذه الأبيات من قصيدة « احساساتى » التى كانت آخر ما نظم الزهاوى قبل موته[1] ترسم صورة هذه النفس المتمرده الثائرة التى عاشت حياتها لا تبالى القيود ولا التقاليد وتحلق فوق الزمن وتسبق الأيام .

هذا الشاعر الثائر ، الراغب التى التجديد المتشائم الفيلسوف الذى يقف من مصائر الحياة والأمور موقف المتشكك هو تلميذ صريح للمعرى .. وقد سبق زمانه بوقت طويل . فعاش غريباً وأثار عليه المحافظين ورجال الدين . ولكنه هز الحياة فى العراق والشرق هزة عنيفه وكان فيما انشد ونظم يصدر طبيعه حساسه قوية . امتزجت بها تجارب واسعة واتصالات مختلفة بالاتراك والاستعمار .

وقد عرف عنه أنه لا يجرى مع التيار ويجهر بالكلمة التى يؤمن بها حراً لا يبالى . وظل إلى شيخوخته حار القلب متدفق العاطفة . وخلا شعره من قصائد المديح أو الرثاء أو مناسبات الصالونات التى عرفت عن شعراء مصر :

وتبدو فلسفة القوة واضحة فى شعره :

ليس الحيـاة سوى نزاع دائم   يا للضعيف به من الجبـــار
يا شيب لستم للوعى فتأخروا   وبدار يا شبان ثم بـــدار
القوا القديم وبالجديد توشحوا   حتى م تختـــالون فى الاطمار

(١) توفى فى ٢٣ فبراير ١٩٣٦ .

وتحرروا من نير كل خرافة خرقاء تلقي الزيغ في الافكار
وتحرروا من قيدكل عقيـــدة ســـوداء ما فيها هدى للساري
أمن اكتفى بخرافة فهو مؤمن ومن امترى فيها من الكفار
ولدى النهاية جاهل في جنـــة فيها النعيم وعالم في النـــار

وقد دافع عن حرية المرأة بقوة :

كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقهـــا عـــذابا
إن الالى قـــد اذنبوا هم صـــيروه لهـــا عقابا
وسيطلب التاريخ من ناس لهـــا ظلموا حسابـــا

وقد وصف الزهاوى نفسه ورسم الخطوط الرئيسية لحياته وكاها تعطينا الدوافع لاتجاهاته الثائرة التي وصفت بالانحراف .

« كنت فى صباى اسمى المجنون . لحركاتى غير المألوفة . وفى شبابى « الطائش » لخفتى . وايغالى فى اللهو . وفى كهولتى « الجرىء » لمقاومتى الاستبداد وفى شيخوختى « الزنديق » لجاهرتى بأرائى الفلسفية »

وقد بدأ حياته بنوع من الاضطهاد لعله بعيد الأثر فى حياته «كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى . فنزعنى والدى من أحضانها دون إخوتى وأخواتى . وأخذ على عاتقه أن يربينى تربية خاصه مشبعاً هواه . وكان من هواة الأدب .

« وكان يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر »

وكان عنيداً ويروي هذا الحوار الذي جرى بينه وبين والده وهو فى يافع صغيره .

ــ البس يا جميل عباءتك فانى أخاف عليك البرد

ـــ يا أبي إني لابس العرقة . فمن أين يتسرب البرد

وعرف في صباه بهواية تطيير أسراب الحمام في الهواء والولع بركوب الخيل .

وقد كان ابرز كفاحه السياسي الذي سبب له المتاعب مطالبته بالدستور. ومقاله في المؤيد عن حق المرأة حيث دعا إلى حريتها عام ١٩٠٢ ونشر هذا الشعر في ذلك الوقت البعيد الغائر في الجمود .

مزقي يا ابنه العراق الحجابا   واسفري فالحياة تبغي انقلابا

مزقيه واحرقيه بلا ريث   فقــد كان حارساً كذاباً

وتعد هـــذه القصيدة هي ذروة ثورته على الجمود .وعلى أثرها واجه أقسى حمله حتى أن البعض طالب باباحة دمه .

وكانت كتاباته وأشعاره مبنية على الحدة والحماسة لا على الدرس العميق أو حتى الاستكناه الدقيق .

وقد كان نائباً في البرلمان العثماني في استانبول . وأستاذاً للفلسفة في الجامعة التركية . وقد اتهم بالحاد . وانشد أبا الهدى الصيادي قصيدة في ذم عبد الحميد فسجن .

ويصف احرج ساعات حياته بانها « لما سجنني السلطان عبد الحميد ، وارجعني إلى بلادي مخفوراً ذليلا جزاء اتفاقي مع الأتراك الأحرار في طلب الدستور وكذلك يوم هاج الشعب العراقي على لمقالة شديدة نشرها لي المؤيد في الدفاع عن المرأة حتى إني قبعت في داري أسبوعاً لم أخرج منها خوف اغتيال الشعب لي وعزلني يومئذ والي بغداد « ناظم باشا » من وظيفتي في مدرسة الحقوق » .

وكان قد سافر إلى استانبول نائباً عن لواء المنتفق . وكان لصلته بالصحافة

فى مصر أثرها فى تخفيف اضطهاده . فان بطاقة من جريدة المقطم حالت دون نفيه إلى الهند .

مزقيه وبعد ذلك أيضاً مزقيه حتى يكون هبابا
بزاعيه بقوة وطئيه واجعلى فى فم الحينق ترابا

وقد اضطر فى أبان محنته إلى بيع معظم كتبه . ثم هاجر إلى سوريا ومصر وظل فى معارضته لحكم عبد الحميد يوالى انشاء القصائد فى هجائه .

وعند ما عاد إلى العراق وكانت الظروف قد تغيرت وعزل عبد الحميد انقطع عن التدريس للشعر ولكنه ظل سابقاً لعصره متهما بين أهل جيله وبلده بالزندقة والجنون والإلحاد ، فقد عاش فى تلك المرحلة المضطربة من حياة البلاد العربية عند ما كان الصراع بين القديم والجديد . والمحافظة على الماضى والاندفاع نحو الترب قائماً . وكان بريق الحضارة قد بهره فاندفع يدعو لها بقوة ولكن الزهاوى على هذا الاتجاه الفلسفى فى شعره وتقليده للمعرى لم يخلق مذهباً شعرياً معيناً . ولعله فى نظرى أشبه بحافظ . يقول الشعر ثم يدعه مهملا ولعل جنوحه إلى مثل هذه الفوضى والاضطراب ناتج عن وراثيات مضطربة وأعصاب مجهدة .

وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش إلى سن السبعين مسحه من القداسة الرائعة خاصة بعد أن تخطت العراق مرحلة الانتقال الثقافى والاجتماعى وعين عضوا فى مجلس الشيوخ .

ولعل دفاعه عن حرية المرأة متصل إلى حد كبير تأثر المرأة فى حياته وفنه وقد أثرت عنه فى أبان إقامته فى استانبول مغامرات وضيئة حيث أطلق لهواء العنان بعد أن فارق بيئة العراق حيث كانت التقاليد والكبت تصاحبان حياته منذ أول الشوط :

ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يألف العشق الطويل المدى .

ويبدو أن الزهاوى فى الحب اشبه بشوقى فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل إلى اعماق الحب ولا يسبر غوره . وهو ليس من الروحيين الغزليين وأقرب إلى الواقعية الآدمية ولا تجد عنده تلك الحرارة الدافقة فى العاطفة .

نظرت إليها وهى تخطو كأنها غزال بمخضر من الروض يمرج

وتحسب ماس القرط نار حباحب على متلع من جيدها تتوهج

ولا صبر حتى يمسك القرط رجفة باذانها أو قلبي المتهيج

ولعله هنا لم يسبق عصره وإنما استجاب للمعانى التى تفرضها البيئة المحافظة والفهم الغائر فى القدم .

ولعله وجد فى مصر أيضاً سبيلا إلى عاطفه أو حب . وهو فى كل أحواله عن المرأة والدعوة إلى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم إذ أنه لم يستجب لذلك فى حياته الخاصة . فقد كان الزهاوى زوجاً وكانت زوجته متحجبة . وقد وصفت هذه الحياة بأنها كانت هادئة مرضية لنفسه .

وقد تزوج الزهاوى فى سن مبكرة وأمكن أن تهيء لهزوجه أسباب الراحة النفسية على ما به من شذوذ ، إذ كانت خير معز له فى المحن الفكرية والسياسية التى تعرض لها . وفى خلال سنوات مرضة باعصابه . وغاية القول أنها كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبه وقد سافرت معه إبان نفيه إلى مصر وسوريا .

ومن أبرز معالم حياة الزهادى الخاصة أنه لم يرزق أبناء ولعل ذلك كان مصدراً من مصادر اضطرابه النفسى .

وأبرزمعالمه النفسية خوفه من الموت ومداوره معانيه :

ما الذ الحياة لو هى دامت غير أن المنـــون بالمرصاد

وكان يربط بين حياته وشعره ويراه كل ما يملك فى دنياه :

أنا بالشعر وحـــده متسلى إنه كل طـارفى وتـــلادى

وإذا وافتـــه المنية قبـــلى فاحفروا حفرة له فى فؤادى

وإذا مت قبـــله فهو يرثينى لو ظـــل حافظا لودادى

وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس شاعرا وقال عنه الناقد يوسف جورج أنه ليس شاعراً ، إذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل. والزهاوى كان لا يبالى بالعواطف والخيال أبداً . ومن يقرأ شعره لا يرى فيه إلا حقائق تعتمد على العقل قبل أى شىء آخر ولم يستطيع أن يكسبها بوشاح من الروح الشاعرة على الرغم من محاولاته العديدة فهو ناظم وليس بشاعر .

* * *

وتقتضينا دراسة الزهاوى أن نتحدث عن رفيقه الرصافى . وقد كان أشبه بحافظ وشوقى فى مصر تنافساً وصراعاً فى ميدان الأدب .

وليس شىء اتهم به الزهاوى يمكن أن يخلى منه الرصافى فقـــد اتهم بالكفر والزندقة أيضاً .

وقد كان جريئاً فى المطالبة بالسفورمهاجمة المحافظين والمتعالمين بالشريعة. وقد تزوج مرة واحدة أثنا إقامته فى تركيا . وطلق امرأته بعد فترة وجيزة كما فعل حافظ . ولـكنه كان محباً رقيق العاطفة جياش القلب :

وقفت عليكن قلبى الذى يمر به الحب مر السحـــاب

فمنكن أحببت هـــدى وتى والفيت عذباً بكن العـــذاب

فمنكن بيضاء ما فيلها عدا حمرة الخـد إلا القمر
فتلك التى طاب لى وصلها كما ليلة البـدر طال السحر
ومنكن حمراء جـذابة حكى وجهها الشمس عند الطلوع
أرى عينها وهى خـلابة فامسك بالـكف منى الضلوع

وهـذا الحب هو حب نوعى جذى لا يمثل المعنى الفلسفى الروحى ولم يعرف عن الرصافى أنه أحب حباً واقعياً واحـداً . وإنما هو يرسم لوحات للجمال الذى يشاهده أحياناً فى المرقص . وله فى ذلك غـدره وغدر الأدباء فى عـهده سواء فى مصر أو فى العراق فقد كانت المرأة محجبة ولم تكن ترى إلا فى هـذه الملاهى . ولذلك فهو يتحدث عن المرأة كامرأة وليست كملهمة .

ومنكن طرأ بوادى الهـوى أهيم وإن لم تعـد عائـده
إلا أن حباً بقلبى انطـوى كثير فلم تكفه واحـدة
فالله ما قد هجن لى من صبابه الفت بها طى الضلوع على الجمر
وارسلت قلبى نحـوها مشيعا فراح ولم يرجع إلى حيث لا أدرى

إنها حواء اينما ذهب تأخذ قلبه .

* * *

وتعرض الرصافى لحقد السلطات العثمانية والانجليزية نتيجة لحرية رأيه وقاسى شظف العيش أياماً طويلة حتى اضطر إلى أن يبيع السجاير فى دكان صغير . ولـكنه عاش عزيز النفس . يكره المال ولم يمنعه هذا من التكسب بشعره وقد صور آلامه ومأساته فى هذه الصورة .

فقـد رقت ثيابى اليوم حتى تكاد تذوب من مس الهـواء

عـــذت شفافه حتى كأني لبست بهن أثواب الرياء

وقد اشتغل الرصافى[1] فى مستهل حياته بالتدريس . وعندما شبت الثورة فى تركيا ضد السلطان عبد الحميد لأجل الدستور كان الرصافى أول من غذى هذه الثورة بشعره .

وقد اضطر تحت ضغط الاضطهاد أن يترك العراق .

عتبت على بغـداد عتب مودع امعنيه فيها الحادثات قراعا
اضاعتنى الأيام فيها ولو درت لعز عليها أن أكون مضاعا

وحمـل الرصافى كاحمل الزهاوى على التخريب الدينى والتعصب المذهبى إذ كانت البيئة العراقية تذخر إذاك بهذا اللون من الجمود .

وقد خلف الرصافى بغـداد فترة طويلة سافر خلالها إلى الشام ومصر وتركيا وأقام فى اسطنبول ثم عاد إلى العراق ١٩٢١ حيث عمل مدرساً بمدرسة المعلمين وانتخب فى البرلمان العراق ١٩٣٠ . وفى ١٩٣٧ اعتزل السياسة ومضى يقضى شيخوخة موحشة .

وترك الشاعر الرصافى عند موته وصية جديرة بالتسجيل قال فيها «كل ما كتبته من نظم ونثر لم أجعل هدفى فيه صفتى الشخصية وإنما قصدت به منفعة المجتمع ، الذى عشت فيه والقوم الذى أنا منهم ونشأت بينهم . لذلك لم أوفق فى حياتى إلى ما يسمى بالرفاهية والسعادة فى الحياة . لا أملك سوى فراشى الذى أنام فيه وثيابى التى البسها وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذى فى مسكنى ليس لى بل هو مال أهله الذين يساكنوننى وكل من اعترى لى فى حياتى فهو فى حل منى . وإذ كان هناك من اعتديت عليه أنا فهو بالخيار . إن شاء عفا عنى وإلا قضى بينه وبينى الذى هـــو أحكم الحاكمين .

(١) ولد عام ١٨٧٠ وتوفى عام ١٩٤٥ .

على ادهم

عنيت [1] منذ وقت بعيد بأن تؤجج النهضة الأدبية وتشعل النار المقدسة. وترد عن الأدب عادية الصحافة ، والجحود والاسفاف .. وكانت « الزمان » قد افردت للأدب مكاناً مميزاً . وقد رأيت وأن لسبيل هذا الكفاح استنهاض الأدب من عثرته . بعد أن طغت عليه موجات السرعة والسياسة والتعبير الصحفى وأدب الساندويتش والطقاطيق .. إن أذكرك باسم هذه الطائفة من كتابنا وأدبائنا الذين هجروا ميـــدان الأدب أو كادوا .. فى ولست أشك لحظة فى أن الادب فى مصر لا يعز أصحاب الأقلام وأصحاب المثل العليا على أن يمضوا فى طريقهم . ولكن متى كان المفكرون والأدباء إلا ضحايا على مذبح الفكر الخالد . ومتى عرف الناس قدر الأدباء العباقرة والكتاب الافذاذ إلا بعد أن يواريهم الثرى ويطويهم الموت .

خذ مثلا الأستاذ على ادهم . هذا الكاتب الذى تراه حين يطالعك فى آثاره وكتبه وقد أخذ بزمام نفسك . وملأ اعابك بروحه الفياضة . ومضى

(١) نشرت هذه المقدمة فى جريدة الزمان ١٩٥١ فى كلمة موجهة إلى الأستاذ محمد على غريب .

بك إلى غايته وأنت مبهور مأخوذ لقد كتبت فى مذكرتى الخاصة عن «على ادهم» منذ خمس سنوات «ليس من الكتاب الذين يتحدثون عن أنفسهم. تبدو فى دراساته روح المثالية. وخصوبة الثقافة وجودة العرض كاتب مقل ولكنه عميق. تستطيع أن تمضى معه دون أن تصدمك منه بادرة ما. تجده مقبلا على فكرته يبسطها فى رفق ويكشف عنها فى هدوء.

وهو معنى بالنفس الإنسانية والبحث فى اغوارها. والخوض فى اسرارها والكشف عن غوامضها. وهو دائب التطلع إلى ما وراء الأشباح القائمة. فيه صوفية معتدلة. وفيه فلسفة غير معقدة وفيه، مثالية واضحة. وهو وسط على أى حال. لا تميل إلى التشكك الذاهب فى دياجير التشاؤم. ولا يجنح إلى السخرية المغرقة فى التهكم.

لم يتجه على ادهم يوماً إلى ميدان الصراع الأدبى. ولم يدخل فى مناوشات أدبية أو خصومات فكرية. وهو رجل يغلب عليه الانطواء والهدوء ولا يعنى بالبهرج والزخرف ولا يطلع على الناس بالرأى الجرىء ولا بالفكرة الحادة.. »

وبعد فعلى ادهم كاتب «موضوعى» متمل. يكتب فى أوقات الصفاء. ويتخير أوقاته وموضوعاته. ويبدو من وراء انتاجه أنه رجل منظم أنيق وهو من الكتاب الذين يترقبون أوقات الفيض والوحى واعتدال المزاج.

وأنت لا تستطيع أن تقول عنه أكثر من أنه رجل باحث ألم الماماً واسعاً بالأدب الغربى الحديث وقرأ كثيراً من الأدب العربى القديم فتكونت له تلك العقلية التى تتعرض للقضايا الكبرى فتبسطها فى يسر.

فاذا ذهبت بعد ذلك تسأل عن شخصية الكاتب. فانك تراه كأكثر كتابنا أبناء المدرسة التى خلقت مدرسة الرواد. إن أغلب ابناء هذه المدرسة

يعملون فى دور الحكومة . فقد كرهوا العمل الخالص للصحافة وأحبوا أسلوب الكتاب المؤلف عن المقالة الصحفية . والأستاذ ادهم أحد هؤلاء يعيش حياته الرتيبة العادية ، يقرأ ويكتب .

ولعله يصور نفسه فى هذه العبارات « الإنسان يريد أن يستخبر كل مجهول . ويستبطن كل سر . وأن يسع علمه كل شيء فلا يجهل ظاهراً ولا خفياً . ولا تند عنه شارده ولا وارده . ولكنه يرى قصر الحياة واستهدافها لسلطان المصادفة فيظهر له غرور المعرفة وخداع الأمل وعبث الطموح . ويستوثق أن مصير آماله الزاهية فى الإحاطة الشاملة ، للافول ، وأن ظمأه الى المعرفة لن يرتوى لها غليل ، وأنه لن ينتهى إلى غاية مهما تمهد له الأسباب .

وبعد فعلى أدهم قارىء مدمن . وأن يرى دائماً فى المكاتب الكبرى فى القاهرة يتطلع من وراء نظارته إلى رفوف المكتبات باحثاً عن كتب جديدة . وهو فى هذا أشبه بصديقه العقاد ..

وهو من الكتاب الموضوعيين الذين يعجبون بالأدب الانجليزى . ويتصلون به اتصالا وثيقاً وأسلوبه رصين متزن . سهل التناول . ولكنه قوى . وهو يعنى بتجويد أسلوبه . ولا يبتذله ، ولا ينزل به إلى المستوى الصحفى . وهو من أصحاب المذهب الارستقراطى فى الأدب . وفنه الرئيسى « المقالة » ولم يشتغل بالشعر أو القصة . وإن كان قد ترجم بعض القصص

وقد اتصل على أدهم بالعقاد ، حتى عرف فى بعض الأوساط الأدبية بأنه من تلاميذه . ولكنك عند ما تقرأ أدهم وتراه يتميز بالشخصية الاستقلالية . فهو عزوف عن السياسة منذ شبابه وبذلك برىء أسلوبه من عدوى « الهجاء » التى تميز بها أسلوب كتاب مصر الرواد الذين اشتغلوا بالسياسة . وهو من الكتاب الذين ينتجون فى صمت ويعملون فى هدوء وقد

أساءت إليه الصحافة إذ أبعدته عن مكانه الخليق به فى الأدب . عند مافتحت الشهرة الطاغية لكتاب الصحافة الذين تترد أسماءهم فى كل يوم .

ولم يشترك على أدهم فى سجال ما ، ولم يدخل فى معركة أدبية . وبذلك ظل بعيـــداً عن مجال المسرحيات الأدبية التى عرف بها بعض الكتاب . وكانت سبباً فى ظهور اسمائهم . وإن كنت أعتقد أن من مميزات الكاتب القوى أن يكون مقتحما وصوالا . يستطيع أن يصارع ويقاتل ويتعرض النقد ويدخل المعارك الحقة . ويهاجم الأراء الملتوية .

ولكن يبدو أن على أدهم تنكر هذا اللون من الصراع بطبعه ولما فيه من مثالية إذ يرى أنه قلما يخلو سجال من غرض شخصى أو هدف ذاتى .

ولا نأخذ على « أدهم » إلا أن أدبه لا يكشف صورة نفسه ولا يرسم مرآة لشخصية . فهو مؤرخ وعالم ذاهب فى اعماق البحوث . ولذلك فمن العسير تصوير حياته أو هواياته أو الأحـــداث التى اثرت فى اتجاهاته .

وهو فى هذا تخلف كثيراً مع زميله وصفوة عبد الرحمن صدق الذى يمكن أن تميل الجانب الوجدانى الخالص فى هذه المدرسة التى اتصلت بمدرسة الديوان من قريب . فصدق يتميز بالشباب الذى يتفصد حرارة وحيوية . والذاتية الأدبية بارزة فى أدبه وموضوعاته . وقد كشف ديوانه « من وحى المرأة » عن طبيعة شاعره وعن نفسيه عاطفية تهتز للحب والموت .

سعيد العريان

« ... وهذا كاتب آخر قد اختفى أو كاد من عالم الأدب . منذ سنوات . فلم نعد نقرأ له كلمة فى صحيفة سياره . أو نسمع عن كتاب جديد له تخرجه المطابع .

ويتميني أن الأستاذ العريان قد شعر بضعف تقدير البيئات الأدبية للأثر الجيد فآثر الانزواء واحتجب عن ميدان الأدب . وقدكان خليقا به الا يقهره شيء عن المضى فى أداء رسالته فى تجلية جوانب مصر الإسلامية بذلك القصص الممتع الجود . فهو كاتب جيد العبارة . صادق الاحساس . مصقول البيان . تشهد أثاره بمدى الجهد الذى يبذله فى سبيل استخلاص هذه اللوحات الفنية وإخراجها من بين صفحات التاريخ المبعثرة الضخمة . المتعددة الجوانب . المتباينة الألوان والأهداف .

وإنى لأذكر يوم كان يكتب فى مجلة الثقافة بابه الأسبوعى الذى كان يوقعه بكلمة « قاف » والذى كان يصدره بكلمة « هذا رأيي وعلى تبعته وحدي » وان أنسى فصوله فى الرسالة والثقافة وخاصة ماأرتبط بماساته الخاصة »

• هذه كلمات نشرتها الزمان سنة ١٩٥١ وكنت قد تابعت العريان طويلا وشهدت المعركة التى كان يقودها بعد موت الرافعى . وعرفت صلته بالرافعى فى هذه الفصول التى كتبها عنه والفصول التى كتبها الرافعى نفسه وكان هو « العقل الوسط » بينه وبين القراء . وأن يد العريان مع روح الرافعى هى التى قربت إلى الناس فصول وحى القلم بعد أن ظل الرافعى معتصما بلون من الأدب لا يقرأه إلا الخاصة .. ردحا طويلا من الزمن ..

ثم عرفت كيف اتصل العريان بالدكتور طه حسين . وظل مع مودته يحتفظ برأيه فى الرافعى ويبقى له وهو فى الوفاء مثــل . وله بحديث الوفاء صله . فقد ماتت زوجه منذ سنوات . وقد عاش لذكراها وفيا . ولعل هذا من صفحات التاريخ الأدبى الباقية . فقد كتب بضع فصول عن هذه المأساة على أثر مرور العام الأول على وفاتها تفيض بالحزن العميق واللوعة المشبوبة والكمد المحرق . وهو فى هذا يختلف مع عبد الرحمن صدقى الذى تدفق الشعر منه بعد وفاة زوجته حتى كتب ديوانه فى خلال شهرين . أما سعيد فانه لم يبدأ نوحاته إلا بعد عام كامل قضاه يجتر همومه وأحزانه .

لقد كانت ــ هى ــ نعمة من تلك النعم النادره التى يسوقها الله لبعض الناس . زوجة المفكر الأديب حينما تكون هديا لروحه وضياءاً لأيامه . تمده بالابداع الفنى الذى يدفعه إلى مكان الصداره . . ولكن مهلا فقد كان موتها أيضا من أمجاد الأدب . لقد حمل سعيد أن يعتكف على قراءة التاريخ القديم كله . يفنى فيه أيامه ولياليه . ليفنى فى أحداثه وقصصه هذه المأساة فكانت هذه الآثار والروائع التى الهمها من « على باب زويله » إلى « بيت قسطيطين » إلى «قطر الندى» إلى « شجرة الدر » اثراً من آثار الحزن العميق والألم الممض والحب المحترق فى قلب شاب كانت طبيعته المتدينة الحائفة تقصيه عن ميدان المرأة .

وكذلك وجد سعيد الفه ، تلك النفحة الروحية الصادقه . ثم يلبث أن

فقدها . فقدها على حين غفلة من الدهر . وبلا مقدمات . وتركت له ابن وبنت ابن ولد لم يرمع الضوء أمه . وبنت ماتت أمها وهى لم تبلغ العام وتركت له ألما ومراره . . كانت فصول تحت الرماد بعض أثرها . فعاش سعيد للذكرى .

* * *

ولد سعيد لأبيه وهو فى سن المائة وفتح عيناه على تلك المكتبة الضخمة الحافلة بكتب العلم . فامتلات روحه منذ ذلك الصبا الباكر بمعالم الروحية الصادقة النقية ثم اتجه فى شبابه إلى الدرسات الإسلامية التى تبلورت بعد فى فنه القصصى الذى كشف به عن الجوانب الغامضة من فصول هذه الحياة .

وقد أحب الرحلات من صباه ، ودرس آثار مصر القديمة وبيوتها ومساجدها ومقابرها وهى اقتحامات جريئة لم يبالى خلالها بالظلام ولا بالوحدة . . .

وقد عرف سعيد بعزوفه عن الصحافة فلم تفتنه مغريات البريق الخاطف فخلص أدبه من الميوعة والرخاوة . وهو إلى هذه المثالية عزوف عن المجتمع حريص على برجه العاجى وافقه الخالص . يقرأ ويكتب ويعيش فى حديقته ينسق أزهارها ويجرى مياهها . وتلك هى هوايته .

ويغلب على الأستاذ العريان الاتجاه التاريخى . فهو من هواه مزج التاريخ بالأدب . وهو من المؤمنين بالبحث وتجلية الماضى الخالد . وإبراز الامجاد العربية والإسلامية . وقد قرأ تاريخنا الإسلامى باحثا فيه عن هذه الجوانب الجديره بالابراز والتخليد .

وهو يتخير أوقات الوحى التى تزدهى فيها القريحة وتشرق النفس ويفيض القلم ويتحرى أوقاته فى الصباح الباكر والمساء المتأخر . ويجلس على مكتبه

ليس معه إلا قلبه وورقه الأبيض وعليه سجائره يحرق دخانها فهو لا يستعين بالمراجع ولا الجذاذات .

* * *

وبعد فهل يمكن القول بأن الحرمان كان هو مصدر إنتاجه :

« ... ها أنذا أقيم فى هذا المكان منذ رمانى القدر من بغتاته بماوى متفرداً بأحزانى على حدود الصحراء . هـــذه النخلات بازائى . وهذه النخلات من ورائى . وهذه الرمال . . حتى الفت مكانى . ما بالى اليوم يعاودنى حنين المغترب فيطوى بى الزمان والمكان إلى حيث يذكرنى وما نسيت . . وجلست وحدى فى الشرفة اتطلع إلى السماء . وكم لنا فى السماء من غايات . وكم لنا عندها من ودائع . فى مثل هذا اليوم منذ عام . لم أكن فى مجلسى وحدى ولم تكن نظرتى وحدى . ماذا أرى الساعة ومن ذا يرانى لا شىء ولا أحد غيرى وغير أحزانى . واذن مؤذن الراديو فى المنزل البعيد لخف كل صائم إلى مائدته وثقلت بى همومى فلم أغادر مكانى . ونظرت نظره إلى الوراء فثابت إلى نفسى . هذه ابنتى الصغيرة تدعونى إلى مائدتى وإلى جانبها أخواها الصغيران . طفلة تستند إلى مهد طفل رضيع . هـذه اسرتى منذ اليوم . بل منذ أمس الذى كان .. وحسوت حسوة من دموعى ثم نهضت إلى المائدة . من أجل هؤلاء يجب أن أعيش . وخيم السكون على الدار الصامتة إلا صوت أب . يضاحك بنيه على المائدة . وإلى جانبه مقعد خال . ومضت ساعة الغروب من أول يوم من رمضان لاحديث ولامسامرة ولا نجوى .. ولا نور . يا ليالى فى رمضان فات . وفى رماضيين قبله عليك وعليك . عليك اسكب أحزانى دموعا باقية لا ترطب وجنة ملتهبة ولا تطفىء ... »

.. هذا جزء من القصة ، قصة النار التى تحت الرماد ، وهـــذه صفحة أخرى ...

« لقد كان لى ذات يوم تاريخ . وكنت فى ذلك التاريخ شيئاً . أو لعل قلبي هو الذى كان . فاليوم وقد بلغ هذا القلب آخر قصته فان من حق هذا التاريخ أن يكتب وأن يقراه قارئه .

.. ولكن ما هذا الذى كان فى حياتى ثم انطوى . ارأيت لو أن حلما يجسد لذى عينين بشراً سويا فيعيش كما يعيش الناس حينا ثم يرتد إلى وادى الكرى كما يتوارى الشعاع أو يختفى الظل — لو أن شيئاً من ذلك يمكن أن يقع فى حيـاة الناس ، لقلت أن هـــذا الذى كان فى حياتى ثم انطوى لم يكن إلا بقية حلم . ثم عاد كل شيء إلى طبيعته . كان لم يكن شيء . وعادت الأمنية التى كانت ذات يوم حقيقه فاختبأت فى أحلامى .. »

وهو يؤمن بالمراه « إن المراه للرجل أن هى وحى المجد ومطلع الأمل . فاذا عادت لهفة ودموعا هى امراه ولكنها اليأس والحرمان والخيبه »

وكأنما ربط الحب بينه وبينها على أدب وفن « .. وتلاقينا على ميعاد وجلست أقرأ لك فصلا بليغا من كتاب كان معى فتندت عيناها بالدمع . لقد قلت لى كلمة مازال صداها يرن فى أذنى :

.. ليس فى البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التى تهز النفس من أعماقها غير الأدب البليغ »

.. عشر سنين من عمر الشباب وأنا أخرج للناس كل يوم جديدا فى الأدب . الايكن من الهامك فانه بسبيل تحقيق أملك .. »

وبعد فلئن أحب الرافعى سعيداً وأحبه وقال سعيد عنه « من حق الرافعى على أن أذكر له يده على فهو الذى سدد خطاى إلى هدف مرسوم ، هو الذى

جعل كفاحي للعلم والأدب إلى غاية . فاذا كنت اليوم شيئاً من أدباء الجيل فتلك حسنة من حسناته ويد من أياديه ، وقد وصف الرافعى سعيد بقوله أما «س» فرجل كشيخ المسجد يكاد يرى حصير المسجد حيث وطئت قدماه من الأرض ذوى دين وتقوى . وما بهما ينقبض وينكمش ويتزايل حتى يرجع طفلا فى الثلاثين من عمره . وهو حائر بائر لا يتجه لشىء من أمر المرأة .

وقد فقد منها ما يحل وما يحرم . ولا جرأة لنفسه عليه فلا جرأة له على الموبقات . ولا يزين له الشيطان ورطة إلا أملس منه . فان له ثلاث أبواب مفتوحة للهرب . إذ يخشى الله . ويتوقى على نفسه . ويستحى من ضميره ،

وبعد فسعيد العريان من أدباء الشباب . من الجيل الذى جاء بعد جيل الرواد وهو أديب صبغ الحب حياته وأدبه ونخشى أن يكون فتور الأحزان فى نفسه فتوراً عن الانتاج والبحث .

على الطنطاوى

« . . هل تذكر يوم أن جزنا قبـــور الدحداح ونحـــن طفلان يتيمان . فى طريقنا إلى المنزلين الصغيرين المتجاورين فى السمانه . فوقفنا ساعة بين القبرين المتدانيين نزور أبوينا . ثم ذهبنا مسرعين لتودع الآمنا صدر الأم ، اتذكر ما قلت لى يومئذ عن حبك أمك وتعلقك بهـا وقالت لك . اتذكر أننا أتفقنا على أن الحياة مستحيلة علينا بعد الأمهات . وأننا سنبقى معهن أبداً وشملنا جميع وعقدنا متصل . لقد كان ما ظنناه مستحيلا . لقد ماتت أمى وأمك وأحتواهما ذلك القبر الذى حوى أبوينا وعشنا بعدهما . »

هذه صوره على الطنطاوى بقلمه مع صفيه زميل الصبا أنور العطار .أنها أسعد صداقاته . هناك فى مدينة الأموات عاشت هذه المودة التى لا يستطيع أن يعدو عليها الموت لأن الأدب اكسبها الخلود فهـذا ناثر وذاك شاعر . وقد جميعتها الرسالة بضعة وعشرين عاما .

وعلى الطنطاوى من أبناء دمشق بلد الحب واللطف والكرم والجمال . ولكن مصر لها فيه جزء كبير . فهو قد جاء مصر وتعلم بها وتلقى على خاله

العالم الفاضل السيد محب الدين الخطيب الذى تلقين علمه واحببناه وعرفنا فيه غيرته على التراث الاسلامى .

وقد بدأ الطنطاوى حياته وأكبر أمله أن يكون معلما وكان يتوهم حياة المعلم جنه انزلت الأرض . فيها ما تشتهى الأنفس . فلما صار معلما لم يجد من تلك الجنة إلا الذى تجده الغوطه فى الشتاء . أرضا موحلة ما فيها إلا الشوك . فآمل أن يكون كاتبا فلما أصبحه ملأ الدنيا من حديث طريف وأسلوب جميل . ولكنه هل رضى . اسرعان ما ضاق بنفسه وأدبه . وأمل أن يكون قاضيا وأن يكون خطيبا وأن يسيح فى البلاد . ولم يجد فى الأمل إلا الألم لانتظاره ثم الملل من بقائه .

وقد ساح فى البلاد . ذهب إلى القاهرة وبغداد وبيروت ومكة والمدينة وشاطىء دجلة والبصرة وكركوك ودير الزور والقدس .. وقرأ تاريخ العرب والاسلام . وأعانة هذا على إنشاء فصول تنبض بالحياة والايمان. بالعروبة وامجاد الاسلام .

ويقول الأستاذ الطنطاوى أنه أخذ الأدب عن الاستاذ سليم الجندى الذى كان يحذره من قراءة الجرائد والمجلات وكتابات أهل العصر خشية أن أن تصيبه عدوى الركاكة . وهى شر من عدو الكوليرا والجزام . ومن ثم دخل الجامعة وهو لا يعرف من العصريين إلا المنفلوطى رحمة الله . وكان يظنه أبلغ كتاب العصر ولا يعدل بأسلوب نظراته شيئاً حتى وقع فى يده « روفائيل » للزيات فوجده كنزاً من أغلى كنوز النثر . ثم عرف الرافعى وقد أصدر كتابه تحت راية القرآن . فعلم منه أن الله قد خلق من هو أبلغ من المنفلوطى : « أى والله ومن عبد الحميد وابن المقفع وابن العميد »

وهو يقول أن خاله محب الدين الخطيب قد أخذ بيده وسدد خطاه ،

وكان له أفضل مرشد ومعين وللرسالة فى نفسه مكان أى مكان « .. ثم اتصلت بالرسالة صديقته وروحى وسميره وحدق . وكنت إذا نظرت فى كتاب أو أصغيت إلى حديث . أو ضمنى مجلس . أو اشتملتنى عزلة . أو أضجعت لأنام . أو نهضت من منام . أو ذكرت ماضيا . أو فكرت فكرات . أو أغمضت عينى متأملا . أو فتحتهما على مشهد من مشاهد السماء والأرض . أجد فى ذلك موضوعا لمقالة اكتبها أو فصلا انشئه .. »

ولقد نشأ على الطنطاوى فى عهد مظلم فى تاريخ سوريا . فتح عينه على الدنيا أيام الحرب الماضية . كان فى العاشرة من عمره سنة ١٩١٨ . كانت دمشق فى أشد أيامها ومظاهر البؤس والالم فى كل مكان . يرى الازدحام كل صباح على الفرن الذى لم يكن يفتح منه إلا كوه صغيرة يبرز منها رأس خباز ليعطى السعيد من الناس كتلة سوداء لايعرف ماهى على التحقيق . وإن كان يعرف أن أسمها الرغيف . والاسم المرعب « جمال باشا » يملأ القلوب فزعا . ثم رأى المشانق وشهد المآتم . فأمتلأت نفسه بهذه الصور القاتمة ولم تكد سوريا تسمع بفرحة الاستقلال فى حفلة التتويج حتى ذاقت غصة الانتداب فى مأساة ميسلون ولم يكن يعرف فى هذا السن الصغير غير طريقه إلى مكتب عنبر . وتلك الساقية الصغيرة بمقبرة الدحداح . وذلك الطريق الذى ينتهى عنده العمران ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص .

ولقد عاشت هذه الصوره فى نفسه فاشتغل بالصحافة وغامر فى السياسة ثم صار معلماً وسافر إلى مصر ثم عاد . ثم ترك التعليم والأدب إلى القضاء .. ولكن هل استقر ؟

لقد كانت له أمال ضخام فى بعث الأدب العربى القديم والتراث الاسلامى « ولو قدر لى أن أسلك سبيل الأدب سلوك المسافر المطمئن . لا أتعثر الضال وأرضى من هم الكد للعيش ونكد الحياة الممنية الجافة حياة الوظف »

لحقن هذه الآمال . انى لأ قرا من التاريخ ما يزلزل شعورى وهو على اختصاره وجموده على أساليب العلماء فما له لايصنع الأعاجيب إذا فصل ووسع وطار فى آفاق الأدب .. »

وهو فى سن الأربعين يحس بالألم . أنه لم يفد غير ذكريات واهية .
« بقية قلب تناثرت اشلاؤه على سفوح قاسيون فى دمشق . ومسارب الاعظيمة فى بغداد وغابات الصنوبر فى لبنان وعلى طريق الأهرام فى مصر . وعلى ضفاف الشط فى البصرة وحوائط النخيل فى يثرب اشلاء من قلبى وإشلاء . . »

والأدب ماذا أفاد منه، لقد تحول عنه فى سن الأربعين وغير رأيه فيه :
« ... أما انى لم أجد الأدب إلا عبثا . ولم أجد الأدباء إلا مجانين . يسعى الناس وراء المال ويسعون وراء سراب خادع يسمونه المجد الأدبى . كلما أقبلوا عليه نأى عنهم فما هم ببالغيه حتى يموتوا . الأدب الذى أنا تاركة اليوم أو ظان أنى تاركة . ومقبل على الفقه أجدد العهد بما قرأت من كتبه وواهب له قوتى ووقتى .

لقد كنت أهزل يوم كنت أفضل الأدب على العلم . واين من اين . على انى أن تركت الأدب فما أنا تبارك الكتابة . وأن من الكتابة لعلما وأن منها لأصلاحا . . »

ولكن على الطنطاوى رغم هـــذا أديب له طابع الأديب الأصيل .
الانسان المفكر الحى الذى ينتفض ويتدفق ويحلم . استمع اليه « أنا أصرف العمر فى قطع العمر . وأجعل أكبر همى أضاعه أيامى . كانى أعطيت الحياة لأعمل على تبديدها . فاذا لم أجد ما أفرق به الوقت . واضطررت إلى مواجهة الزمان . فى ساعة كساعات الانتظار . ضقت بعمرى . وضجرت وأحسست كانى سأجن . انى اركض ابدأ وراء المستقبل . فى المستقبل

أبلغ آمالى ، وفيه أصلح نفسى ، وفيه أنيب إلى ربى ، وفيه أكتب تلك المعانى التى طالما جاشت بها نفسى ولم يجر بها قلمى ، ولكن المستقبل لن يأتى أبداً فأنا كالفرس الذى يعدو ويشتد، ويكد نفسه ليدرك حزمة الحيش ، والحزمة معلقة فى عنقه ، يبصرها أبداً أمامه ولا يصل اليها فلا يزال يسعى حتى يدركه الكلال فيقع أو تعترضه حفرة فيسقط فيها ولكن الحفرة التى اسقط فيها أنا لا قيام منها ولا مناص من ورودها »

وهو يطوى نفسه على فلسفة متشائمة عميقة الخبرة بالحياة فتراه كمن ينفض يده من الدنيا نفضاً « إن متع الدنيا أوهام . من لم ينلها تشوق اليها وحسد عليها . ومن نالها ملها وتمنى غيرها ،،، ماذا ينفعك أن يكون الناس كلهم يمدحونك إذا كنت منفرداً فى غرفتك مبتئساً ، تعس النفس محزون القلب ، نحن كانا اطفال ، ثم أن الامال لا تنتهى وإذا أنا وصلت إلى الأمل الضخم هان على . وذهب بهاؤه وأنمحت روعته كأن الآمال سراب لا يلمع إلا من بعيد »

لقد أحب على الطنطاوى كثيراً وتألم أكثر مما أحب ، ولكن الحب الواحد الذى انطوى عليه قلبى والألم الفرد الصادق الذى عرفته هو حبى أمى وألمى لموتها، وهو يصور هذا فيقول « لم يبق من آثار هــذا العالم الحافل بالأخلاص والحب الا قبر منعزل وساقية صغيرة تميل عليها شجرة صفصاف

وهو يشكو من ضيق يلم به بين الحين والحين فيعقل قلمه عن الكتابة « ... وحاولت أن أكتب فما سرت فى الفصل غير بعيد حتى تباطأ قلمى ثم وقف . وأحسست فى نفسى بهذا الضيق الذى ما أنفك يلازمنى منذ أكثر من عشر سنين . فيطوى وقدة حماستى . ويعقل نشاطى ، ويغلق ابواب الالهام دونى . فلا اكتب ما أكتب إلا لملء الفراغ وتزجية الوقت »

* * *

وبعد فعلى الطنطاوى كاتب حلو الأسلوب جيد العبارة . فيه صفاء وروحانية . وفى قلبه غيره على العروبة والإسلام . وفيه من الشام ومصر ومن الشرق والغرب . وهو نفس مشرقه تصور أحلامها وأوهامها . أشبه بالكتاب المفتوح . ولكنه إلىذلك كاتب ومفكر له غرابة أطوارهم وتحول نفوسهم . ففيه ذلك القلق المقدس . والعاطفة المشبوبة . والروح المحلقة التى تحب التنقل والتحول والجرى وراء المجهول

وقد اكسبته قراءاته وإسفاره قدرة على العمل الأدبى . وأنت لا تستطيع الا أن تضعه فى صفوف الأدباء بأدبه . كما تضعه فى صفوف العلماء بعلمه . ولقد قرأت له طويلا ولا زلت شغوفا باثاره وقد دفعنى هذا أن أكتب له صورة تحليله عام ١٩٤٣ نشرتها فى جريدة « الأخبار » القديمة

ابراهيم ناجى



لست أدرى لماذا أرانى اتردد وأنا أكتب عن إبراهيم ناجى . لقد كنت أحب هـذا الرجل دون أن أعرفه أو اتصل به . وأن بعض قصائده التى تنشرها أبولو كانت تثير فى نفسى معانى رائعة . حتى أننى ضقت أشد الضيق عندما نقده الدكتور طه حسين فى الوادى سنة ١٩٣٤ وودت لو استطعت الدفاع عنه وأنا فى هذه السن الباكره ..

ولـكن قضى الله إلا أن اترتطم به فى مسائل عاطفية بحته . جعلتنى أنقم علية أشد النقمة فقد كان شريكا لى فى قلب حبيب . وكان عزيمى فى صراع وجدانى . ولم يكن فى نفسى الحقد على الأموات غير اننى تلقيت خبر موته بشىء من التشفى .. ولـكننى اليوم أحس أن الصراع الذى كان بينى وبينه قد انتهى . وان العاطفة الغامرة قد فترت . وأن الشعور الحاد قد مات . . . وبدأت أنظر إليه من جديد كما كنت أنظر إليه منـذ عشرين عاما . بشىء كثير من الأعجاب والتقدير العميق ، وهو عندى شاعر قلق . ترك الجمال الذى فى متناول يده إلى الجمال البعيد الذاهب فى أغوار الضباب . رفض الشىء

اليسير إلى الشيء العسير . وكان محبا محبوبا . قد وسع قلبه كل حب وكل عاطفة .. وكم من فتاة وكم من سيدة حدثتني عن عاطفتها لناجى وعاطفة ناجى لها حتى كاد يختل إلى يوما أنني لن أصادف فى حياتى واحدة تجهل ناجى .

انه شاعر قد ظلمه القدر لجعله طبيباً ، وليس بالطب من جرح وإنما الجرح أن يكون الخيال مركبا فى طبيعة الانسان ، فاذا القدر يواجهه بالواقع ويصدمه . وإنما الجرح أن يكون الشعر مركبا فى طبيعة الانسان بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ويزجه فى الدائرة التى لاشعر فيها ولا خيال . إنما الجرح أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنات الجسد وشتان بين هذه وتلك . انما الجرح أن تجذبه طبيعته لناحيه ومهنته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك »

ولكن ناجى يبالغ حتما فى هذا ، لأن الطب كان جزءا من الحب وقطعة من الفن ومن الشعر وهو نفسه يعاود هذه الفكرة بصورة أخرى . « الطب الذى ارتبط بالأدب فى حياتى أتاح لى فرصة الاطلاع على حياة الكثيرين من العباقرة الفقراء فلم أضق بهم ذرعا . وكانت النزعة الأدبية عندى تجعل عطفى عليهم مضاعفا . بيت الشعر قد يشفى نفسك المعتلة تماما كما تشفى جرعة الدواء معدتك أو سواها من أعضاء جسمك .

ويعزو ناجى اتجاهه الأدبى إلى قصة « كوبر فيلد » ويقول أن هذا الكتاب وأن يكن نثراً إلا أنه قد خلق منى شاعراً إذ أخذت أمثل « دورا » مقلداً كوبر فيلد وكانت دوراً هذه صبية تجلس بجانبى فى الدرس فى بيتنا . فقلت فيها أول قصيدة . وكانت غزلا أصف به دموعها .

ويقول أنه نظم وهو فى العاشرة وكانت مكتبة والده هى الزاد الأول . وكان ينظم وهو على صخره المكس فى حب . فتاة استرالية . ثم صار الشعر

سجيه . يهبط إلى ويقتضيني امتضاء العزم . والعزم أحيانا يطلب التسديد عاجلا وأحيانا يمهل »

ثم أحب ابن الرومي وأبي نواس والمتنبي . وأحب شعراء الطبيعة فى أوربا . ورد سورث وغيره وقصيدة الغد من روائع ناجى (مارس١٩٣٣)

اغدا قلت فعلني اصطباراً ليتني اختصر العمر إختصاراً

عـــبرت بى نشوة من فرح فرقصنا أنا والقلب سكارى

سنذم النور حتى يتلاشى ونذم الليـــل حتى يتوارى

وقصيدة الوداع الحنين والحرمان (يناير ١٩٣٤)

حان حرماني وناداني النذير ما الذى أعددت لى قبـل المسير

زمني ضــاع وما انصفنى زادى الأول كالزاد الأخــير

رى عمــرى من أكاذيب المنى وطعامى من عفاف وضمــير

وعلى كفك قلب ودم وعلى بابك قيــد وأســير

وهـذه القيود . . قيـود الحب

اعطنى حــريتى . أطلق يدى أننى أعطيت ما استبقيت شىء

آه من قيـدك أو هى معصمى كيف أبقيــه وما أبقى على

إن شعر ناجى يحمل شخصيته . شعر واضح . هو خفقات قلب . لا فلسفة فيه ولا غموض . عاطفة خالصة لا تخالطها الفكرة التى تفسد القريض .. وهو موله دائما . متشائم دائماً . يحس بالحرمان

وكانما الحب فى حياته كائن حى . لم يفارق حياته لحظة . وهو الذى وصف الحب بأنه قدر كالحياة والموت .

وترى من . . هى ليلاه فى شعره الأخير « اكتوبر ١٩٤٧ »

ليلاى ما أبقى الهوى بى من رشد	فردى على المشتاق لهفته ردى
اينى تلاقينا وأنت حزينـــة	ورأسك كاب من عياء ومن سهد
أقول وقد وسدته راحتى كما	توسد طفل متعب راحة المهد
تعالى إلى صدر رحيب وساعد	حبيب وركن فى الهوى غير منهد

فى قصيدة الصحراء . .

أيه « ليلى » وهل فؤادك ليلى	بالذى فى جوانحى لك عـالم
شـــهد الله ما قضيت الليالى	ناعم الجنب فوق مهـــد ناعم
أى جيشك مغرقى . . حبك الطاغى	أم الشوق وحـــده وهو عارم

وكانت ليلاه مريضة فعلا . وكان هو الطبيب . يعالج الروح ويعالج الجسد . يعالج بالحب وكتب علم النفس . وكان الطبيب وفيا يؤمن بقدسية الحب . وكان شاعراً يصور آلامه وحرمانه فى قصائده .

ولعله قد اتخذ اسم ليلى كما اتخذه شعراء الصوفية قديماً أمثال ابن القارض وعبد الغنى النابلسى لتصوير معنى النفس الانسانية فى أى روح جميل

ولست أذهب مع الذاهبين فى أن لناجى فلسفة . إنما هو طبيب استأثرت بنفسه عاطفة حب ضخمة. كان فى نفسه فراغ لا يملأه إلا الحب . وكان شعره تعبيراً عن عن نوحاته وحرمانه .

زكى أبو شادى



أشهد أن اغترابه فى سبيل الفكر هو الذى هزنى . وملأ نفسى . أما شعره فأنا لا اؤمن به كله، أنه لدى صورة الكاتب المكافح الدائب الذى لا يجهد ولا يكل . والذى يضحى بماله فى سبيل الفكر ما ورث من أباه الغنى من أراضى فى سبيل ابراز أثاره وآثار اصفيائه وحواريه

فأنا أومن بأبى شادى الكاتب . الذى كافح فى سبيل فكرته والذى تصفه السيدة جميلة العلايلى بأنه كان حركة دائبة يتمشى مع سرعة عجلات المطبعة بنشاطه و فكرة ومشاعره فى اعداد مجلة ابولو ومراجعه و صحيح أصولها والاشراف على إخراج مجلة الامام الأدبية ومجلة مملكة النحل والمجله الزراعية دون أن يعتمد على كائن مهما كان أو يعتمد على معونة حكومية

وأنا اؤمن بأبى شادى صاحب المدرسة الجديدة فى الأدب الذى احتضن عدداً من الشعراء والأدباء فاخرج لهم مؤلفاتهم واثارهم وابحث عن صنوه فى زمننا هذا فلا أجده

ثم لما أحس بأن الرجعية أخذت تفسد عليه حياته هاجر إلى الاسكندرية ولكنها لم تدعه . كانت ممثلة فى صورة الصراع الحزبى البغيض . وكان متهما بأنه مدرسة أدبية أنشأها عمداً ليضرب بها العهود . . عندما أحس بأنه لايستطيع أن يلتقط أنفاسه حرة طوى رداءه وأغلق حقائبه وسافر . .

« . . من أجل الحرية آثرت الاغتراب عن وطنى حينما تجبر الطاغوت يضرب المفكرين يمنه ويسره . ولأجل منبرى الحـــر وطلاقتى الفكرية والروحية احتملت مشاق النفى الاختيارى ماديا ونفسيا لآنى وجدت هذه المشاق لابد منها لانقاذ نفسى وتحقيق رعايتى بقلمى ولسانى لمسقط رأسى الحبيب ولخدمة مثلى الانسانية . . »

وسافر فى عام ١٩٤٦ ولكن اسمه ظل مختفياً حتى عام ١٩٥١ عندما بدأنا نقرأ له بعض رسائله إلى أصدقائه فى مصر وفى مقدمتهم تلميذته جميلة العلايلى التى حملت فترة من الوقت لواء الدعوة إلى عودته . ولكنه كان قد استقر هناك بصفة نهائية . حتى توفى هذا العام (١٩٥٥)

وكان أبو شادى يحب أبى العلاء وابن الرومى والمتنبى . وكان مغرما بشكسبير وملتن وكيتس . وقد عاش فى انجلترا عشرة أعوام وعاد إلى مصر ١٩٢٤ فعاش بها حتى عام ١٩٤٦ وفى خلال هذه الفترة أصدر مجلة أبولو وعدداً من دواوين الشعر . فقد كان الشعر عنده سجية طليقة . وقد حدثنى عنه الأديب الشاعر الأستاذ محمـــد أحمد رجب بأنه كان يزور ميت غمر بصحبته وعلى طول الطريق كان فى يده ورقه وقلما فما من منظر رائع إلا وأحاله على الورق شعراً حتى اتى بالاعاجيب فى سرعة النظم .

وعاش فى أمريكا تسع سنوات . وكانت زوجته قد توفيت عشية مغادرته القطر فمضى إلى الغربة وحيدا بغير السيدة التى جمعت بينه وبينها عوامل شتى من الحب والزمالة فى بريطانيا . .

وهناك مضى ينتج وينشر فى صحف مصر وسوريا ولبنان . وكل صحيفة تصدر باللغة العربية .. وقد ترك عدداً من دواوين الشعر ، يقول الاستاذ الياس بدوى ، انه كان فى أيامه الأخيرة يريه لفائفها . . ويتحدث معه فى فى قلق واضح ، حديث المشفق على أعز إنتاجه من الضياع ويسأله متى يتاح لهذه الدواوين أن تنشر وهل يمتد به العمر ايراها منشورة مجلدة ويستدرك فيقول أنه جاوز الستين ولكن عزيمته لم تهن وقوته النفسية تستطيع أن تذلل مصاعب المرض .

وتزوج أبى شادى فى أيامه الأخيرة وعاش يكتب لصوت أمريكا ويعد أثاره الجديدة للطبع ويساعد زوجته فى زراعة بعض شجيرات الورد فى ممر الحديقة المؤدى إلى باب الدار .. ويقرأ كل شىء يصدر فى الشرق ومصر .. وصديقه الأستاذ وديع فلسطينى يرسل إليه كل أسبوع طردا ضخما من أثار الفكر التى تصدر فى القاهرة فضلا عن قصاصات الصحف . وكان إلى ذلك يرسم لوحات رائعة يزين بها داره فى واشنطون .

كانت روح أبى شادى شابة ثائرة قلقه . لا تفتر ولا تهمد . وكان يعمل ليل نهار فى سبيل الفكر والأدب وقد طواه الموت . ولكن أثاره ستظل بقيه . ومكانه فى الأدب العربى المعاصر لا يزال مكينا .

محمد زكي عبد القادر

نفس قلقه طموح . تخفي قلقها وراء ستار من التجمل والتوقر . وتريد أن تعطى صورة الهدوء والسلام والاعتدال . أنه قلب خفاق حي . ولكن مع عقل قائد غير مقود . إن دراسة الاقتصاد لم تعطه الجفاف . بل اعطته المنطق . ولم تحرمه العاطفة ولكنها أمدته بسلامة الحكم . ونصاعة الفكرة .

لقد درس القانون . واشتغل بالصحافة . ولكنه طوع قلمه لاسلوب أدبي ممتاز . لم يجعله صحفيا صرفا . ولا من أهل العلم والأرقام والماديات فهو جماع متسق من العاطفة والعقل — والصحافة والأدب . والبيان والفكرة وفيه الوضوح والنصاعة . وفيه الاشواق والحيرة .

وهو يحس أحياناً بأنه في حاجة لأن ينطلق وينسى ذكرياته وآلامه ومتاعبه . « وكان الحر شديداً والليل ينشر ظله الرقيق فابتعدت عن الناس وأخذ النسيم يرق وقد انتصف الليل أو كاد . القمر هادىء صاف .

يفشر نوره فى سخاء ورقه . والأهرام على خطوات منى . والسيارات رائحة غاديه . اسمع أصوات ضحكات ناعمة فاترة . وأحيانا لا أسمع غير عجلات تنزلق على الأرض فى سرعة خاطفة . ونور يومض من وقت إلى آخر . ونفير ينطلق . من يدرى إلى أى غاية ؟ ترى أى قدر ينتظرهؤلاء الضاحكين . وأى قدر ينتظر الذين أظلت الدنيا فى وجوههم .

ومر شريط سريع أمام عينى تلوت فيه حياتى من أولها ، لا أكاد أحس أن السنوات مرت .. والعمر ، ما هو العمر ؟ هل يعد بالسنوات التى مضت أما بالسنوات التى تجىء أم باليوم الذى نعيش فيه .. »

وهكذا ، حيرة نفس مشوقه إلى مجهول ..

وهو محب للرحلة شغوف بها « ما أحلى أن يطوف الانسان فى الأرض ما يطوف وأن يرى ما شاء أن يرى . ثم يعود إلى وطنه فاذا فى قلبه حنين وفى صدره همس رقيق » وهو يهرب من الحياة الرتيبة إلى الوحدة فى رمضان « .. أفطرت اليوم وحدى . لم أشأ أن أذهب إلى البيت . إنى أشعر أحيانا بحاجتى إلى الوحدة كما أشعر بحاجتى إلى الالفة وخرجت إلى شارع الهرم . ووقفت تحت ظل شجرة ، بينما كانت الشمس تغمض أجفانها لكى تنام .

وأكلت ونظرت وتنفست وتمتعت و تأملت ، وشعرت وأنا وحدى كانني مفعم النفس والقلب والصدر بمئات الأصدقاء ، أحسست أني اسمع النجوى من الشجر والزهر والنبت .

كانت بضع سيارات قليلة تمر منطلقة كالسهم وفيما عدا ذلك كان الهدوء ، كأنه قداسة الايمان ، والطبيعة كأنما محراب لا يجترىء على دخوله انسان . كان فى شبه خلوه ، فيها همس المحبين ، ودلال العشاق .. ،

وساءلت نفسى : من أنا ومن أكون ، من اين جئت وإلى أين المصير ،

« ذره فى هذا الكون العظيم ، شىء تافه صغير ».

هذه هى النفس الشاعره ، الحيرى التى يتحث عن المجهول

ولعله قد صور نفسه فى لوحة « نحو النور » هذه فاغنانا عن البحث وراء طبيعته وفلسفة حياته .

دان له من المجد ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم المجد ، و ... له من الشهرة ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم الشهرة ، وأفاء الله عليه من نعمة المال ما أراد وأكثر مما أراد حتى سئم المال ، وأحبه الناس كما أراد ، حتى سئم الحب وسئم الناس .

وها هو ذا فى قمة الحياة يشعر بالقلق نفسه الذى يشعر به من لايزالون فى القاع . . لم تصبح المجد أو الشهرة أو المال أو الحب أشياء تستهويه وهو يسأل نفسه أين المستقر ؟ أين اللحظة التى يطمئن فيها القلب ، ويزكو الفؤاد ؟

هل السعادة أن نحصل على كل ما نريد ، أم أن يظل أمامنا هدف نسعى اليه ، أليس للجهاد نهايه نقف عندها ونقول هذا موعد الحصاد ؟ أليس فى صحراء الحياة واحة نبلغها فنشعر أننا أوفينا على الغاية وآن أن نستريح ؟ أم أن الكائنات الانسانية شمعات تظل تحترق وتذوب إلى أن تنطفىء ، يختلط فى حياتها النور بالنار ، والهدوء بالقلق ، والسكون بالثورة ، والنجاح بالفشل .

وماذا يكون لو خلت الدنيا من الهموم والمتاعب والأحزان والآلام ماذا لو سارت رخاء كأنها طريق مفروش بالورد والأزهار ؟ هل تحلو؟ ألا أن الحزن ضريبة الفرح ، والفشل ضريبة النجاح ، والفقر ضريبة الغنى ، والكراهية ضريبة الحب . أن لكل شىء نقيضه ، ولولاه ما كان ، ولا

يتصور نجاح يشيع فى النفس أمواج السرور من غير كفاح مر يشيع فى النفس أمواج اليأس والقلق .

ليس الاحساس بالسعادة متصلا ولن يكون ، وليست السعادة مرحلة قائمة بذاتها فى الحياة ، ولكنها لحظات تغمر النفس عند كل هدف يتحقق ثم يعود القلق ويتجدد ، لتتهيأ النفس إلى احساس بالسعادة جديد .

والوقوف غير متصور فى الحياة لأنها قائمة على الحركة ، والدوام مستحيل لأنها قائمة على التحول . والتعود على أجمل الأشياء وأعلاها يفقدها قيمتها . وهذا هو سر القلق ، وهو سر الحياة »

وهكذا أمين بما يتميز بهطابع « المثالية »التى تطابق بين شخصيته وكتاباته . فهو رجل لم يتحول منذ بدأ يكتب . منذ ثمانية عشر عاما . نصف عاموده فى الأهرام ثم فى الأخبار .

وهو من كتاب الاجتماع المعتدلين الذين الذين يحبون الحضارة الحديثة ويحبون معها الشرق . وهو من الذين لايحبون الخصومة أو الصراع . وقد شغلته الصحافة عن التأليف والانتاج الخالد .

بدأ حياته الأدبية فى السياسة ومن كتاباته فيها اصدر مجموعة الأولى « صور من الريف »

وهو يحب الصحافة ويرى أنها مهنة أختارها له القدر « ذلك انى درست الحقوق وكنت طوال دراستى أحلم بأن أكون محاميا ، ولكن ما همست إلى به أحلام شبابى الأول شىء ، وما كان القدر يعده شىء آخر ، فلم أكد اتخرج من كلية الحقوق حتى دعانى الأستاذ كامل البندارى المحامى وعضو الأحرار الدستوريين حينئذ للاشتراك فى تحرير جريدة السياسة وكان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الدكتور هيكل ، ونعمت بالعمل فى الصحافة فترة

من الوقت ، فقد شاقنى فيها أنها حركة و يقظة وسعى وتجدد ، ولكنى ضقت بها فترة أخرى ، وكدت أهجرها . لما لاحظت أنها تخدع ببريق ظاهره وفى باطنها تملق العيش وضيق المستقبل . وكدت انتقل إلى العمل فى المحاماه لولا الحنين المكتوم القديم لصناعة التخاطب مع الجمهور والانفعال به والسعى له والدفاع عنه عصمنى من الاندفاع إلى مستقبل آخر ، لقد مرنت أن أعيش فى أعماق الحياة لا على هامشها . والحياة عندى انفعالات وتعبير عنها . وليس كالصحافة عمل يمزجك بالحياة و يمزج الحياه بك .»

وهو يعاود فكرة الرحلة فيقول انه لولا مسئوليات ثقيلة لقضىء العمر يتنقل فى بلاد العالم، يرى وجوها جديدة وأخلاقا جديدة . وانه ليسام أجمل بقاع الدنيا بعد أيام ، فيشعر بالرغبة فى الانتقال منها إلى بلد لم يره . «وانى لآسف أن أرى سنوات العمر تمضى دون أن أزيد علما بهذه الدنيا التى أعيش فيها . وخير أن يعيش الانسان بالعرض لا بالطول »

ولا يتصور نجاح يشيع فى النفس أمواج السرور من غير كفاح مر يشيع فى النفس أمواج اليأس والقلق ويرى أن الأمل جوهر الحياة ، وأن السعادة ليست إلا ومضات خاطفة من الاوهام .

هذه خطوط من نفس كاتب ، لا تطغى عليه الصحافة فى أسلوبه ولا تجرفه فى أفكاره .

محمود كامل

ما أظن أنني تأثرت لكاتب في مطلع شبابي كما تأثرت لمحمود كامل . حتى لأظن أن الرؤى والأوهام والأحلام التي دفعتني في طريقي إلى الصحافة والأدب والقاهرة . . كانت أحلاما في قصصه التي قرأتها أعوام ١٩٣٣ وما بعدها .

وقد عشت في هذه القصص حياة أبطالها . وأثرت في نفسي قصة «حياة الظلام» بالذات ولقد كانت هذه العبارات تملأ نفسي ، وتتردد فيها كأنها أنغام حلوة ناعمة .

« فاطلت النظر اليها ، إلى عينها العجيبتين اللتين كانتا تبرقان في ظلام الكوخ الخشبي بريقا يثير الرهبة والخشوع . خيل إلى أنهما جذوتا نار تطفوان على سطح محيط طال وقوفي على شاطئه في ليلة قارصة البرد . كان يبدو لى كأنما حلمت بهاتين العينين من قبل . . »

ولكن اين محمود كامل الذى دأبت له القصة طويلا . . اين هو الآن

لقد كنت أثق بأن محمود كامل يعيش حياة قصصه وحياة أبطالها وأنه ينبعث عن نفسه . عن صميم حياته . عن نفس الأحلام التى تعيش فيها روحه

لقد خلف القصة منذ زمن طويل ومضى يشق طريقا آخر لعله يظنه أقرب إلى المجد وإنما أربط دائما حياة محمود كامل بقصته الخالدة حياة الظلام فهى تصوره وقد بدأ يتصل بالمجتمع بعد أن أحرز الليسانس واتصل بأوساط الهوى ، وبالسيدة الموسرة التى فتحت له أبواب المجد الأولى

ويمتاز أسلوب محمود كامل بالعاطفة المضطرمه والبشاشة والاشراق . وفى فنه تنويع وتلوين . كما تحتوى قصصه الكثير من اللمحات الوجدانية الصادقة .

ولعل مصدر الاشراق فى أسلوبه هو أنه يصور حباً واقعيا ، وضراما حيا فى نفسه ، كان يلهم به الاحداث فى قصصه التى تجرى فى اتجاه واحد .. هو التمرد على الواقع يعبر عن هذا المعنى فى مقدمة مجموعته القصصية المتمردون التى صدرت يونيه ١٩٣٥ « .. أن هناك وحدة معينة تشع فيها ، وتسمها بطابع خاص ، تلك الوحدة تتلخص فى ثورة الشخصيات البارزة فى كل قصة منها . ثورة تتجه اتجاها معينا وفق الموضوع الذى كتبت القصة من أجله . تلك الشخصيات المريضة المضطربة المتناقضه . تلك الشخصيات التى تفكر وتطيل التفكير ، وتزن الحياة بميزانها الخاص ، وتحاول اخضاع الحياة كلها لوحى أعصابها مهما بلغت ثورة تلك الاعصاب . سيرى القارىء أن تلك الشخصيات التى صادقتها شخصيات .. تتمرد وفق حاله معينة . لها مثلها العليا الخاصة بها . فهى تتمرد فى سبيل تحقيق تلك المثل مهما كلفها هذا التمرد من بذل وتضحيه .. »

وليس شك أن محمود كامل على رأس مدرسة من مدارس القصه الافرنسية المعربة . هو كاتب الطبقة الوسطى . نشأ فيها وكتب لها . ومثل هؤلاء

الكتاب الذين عاشو فى غمار الحياة يكونون أروع إنتاجا وأصدق أدبا وأخلد أثراً حين يصورون هذه الأوساط . ولكن محمود كامل يحرص على أن يصور الحيـاة الارستقراطية . بيئات القصور والسيارات والصالونات ، وهو يخفق فى هذا إخفاقا لاشك فيه كأن يتمنى هذه الحياة وينظر اليها من بعيد . ليس شك أن محمود كامل . كان يطمع فى أن يصل إلى هـذا اللون الرفيع لحياة . وكان يتمناه . ولذلك كان يجد فى تصويره على هذا الوضع ، لونا من الانتقام والقصصى يرى نفسه ربا من الأرباب يستطيع أن ينتقم من أبطاله ويذهب بهم إلى الجحيم .

وإذا كانت قصص محمود كامل تستجيب للنفس الانسانية فانها تستجيب لنوع محدود . انها تثير فى نفس الشاب المحروم ظمأ ، ولكنها لا تطفىء عنده لوعة .

وهى ليست من النوع الذى يدفع إلى المثل الأعلى أو التسامى على دعوة الغرائز بل لعلها تدعو إلى نداء الجنس ولعل مما يؤخذ على محمود كامل انه كتب فى مرحلة الشباب ثم اختفى وذبل فنه وتوارى إنتاجه بعد أن ارتفع به العمر ولعله وصل إلى الشهرة والمجد من طريق آخر . ولكن فنه الاصيل كان أولى به إلى آخر الحياة .

الحب فى حياة الصاوى



قالت[1] ايزا لصاحبها عند ما تحول عنها إلى غيرها « أنت كاتب لا تبحث عن المرأة والحب فى ذاتهما بقدر ما تبحث عن أثرهما فى نفسك ، ليتحول الأثر بعد ذلك حبراً على ورق فانت تبحث دائماً عن طعم جيد وعن طابع غريب ، لا تحاول ان تحتال لهذا وأن تلتمس المغفرة . فلا ذنب لك ، إنها طبيعتك ، طبيعة الفنان الأمين الذى يسخر كل ما حوله لخدمة فنه » .

وقد أحب الصاوى ، وسجل صفحات حبه فى كتاب حياة قلب ، وقد عاش يبحث عن الرفيق وصوره فى صورة رائعة ، فهو رجل لا يهمه علم ولا جمال ولا مال ، ولقد رأى من هذا كله الشىء الكثير ، لأنه من ذلك النوع البوهيمى الذى يظل عنيداً كانه اصم اعمى ، حتى تمر فى حياته امرأة، امرأه واحدة ، فيرتجف وينتفض انتفاض العصفور بلله القطر ويسلبها

(١) كتبت هذا الفصل سنة ١٩٥٣ وقد اجريت فيه بعد التعديل عند ما أعددته للطبع

حياته ... وسواء لديه سارت به إلى الصدرام إلى القبر ..

لقد بدأ الصاوى حياته الباكرة محباً عاشقا .. كان طموحا . لا يريد الحياه على تلك الصوره التى تعيشها الموظفون . وزهد فى العمل الرتيب . ورنا إلى أفق أعلى ، وإلى حياء أخرى ، إلى باريس ، مدينة النور وبدأ يحب شيئاً محرما على من كان فى سنه . وكان هذا الحب كفيلا بأن يجعله يكره كل ما عداها . كيف كانت تلك التى تجسدت له فيها : الملهمة !

كانت سمراء طويلة ، نحيلة ، رشيقة ، وكان فيها ذلك السر الذى سيظل طول عمره يجتذبه فى كل بقاع الأرض .

« المرأة المترفعة ، كانت عزيزة ، عزيزة المثال . كان دونه ودونها الأهوال وهو يحب الحب لأهواله ، لن يطيب له يوماً الحب الرخيص . لن تطيب له امرأه كل الناس . سيعجب بالجارية الشمطاء إذا كانت له وحده ، ويجتوى الكاعب الحسناء ، إذا كانت نهبا مقسما مباحا للناظرين .

« إنه شديد الأنانية فى الحب ، وفظيع الغيرة .

فجاءت هذه الفتاة فسخرته ، بصورتها وصوتها .. وسحرته قبل هذا بترفعها وكبريائها ، لا تنظر إلى أحد ، وهو هكذا يريدها ! ولا توزع النظرات جزافا .. كأنها لا تجد رجلا يستحق النظر إليه .

« لم يكن أمامه بين بين ، لم يكن يسعه إلا أن يختار بين العلم والعشق ، بين البكالوريا وفتاة أحلامه .

« لم يكن فى السن التى تقدر العواقب ، بل السن التى يحول فيها لمعان العيون دون رؤية الحقائق .

عيناه اللتين كانتا ضاحكتين ، لم يطفىء من نورهما السهر والمطالعة والدموع ..

« ولو أنه قدر العواقب يومئذ لكان مصيره مثل مصير الوف الذين انتظمت دراساتهم وأتموا علومهم ، ودخلوا تلك الخانات المرتبة بالدرجات والعلاوات ولكان رقما من الوف الأرقام ، وهو لا يعتقد أنه الآن أسعد حظا ، فللسعادة مقاييسها الغريبة ، ربما كان يسعد وهنأ بالدرجة الثامنة ثم يزداد سعادة وهناء بالدرجة السابعة ثم يطغى عليه الهناء والرخاء إذا عاش ومات فى الدرجة الخامسة .

« ربما كان يسعد وهنأ إذا تزوج فى العشرين ، وانجب الأولاد والبنات ، وكانت امرأته تزهو بقطعتين من الشيت صيفاً ، وقطعتين من الكستور شتاء من بنزيون .

ربما كان يسعد وهنأ إذا تمكن فى كل أسبوع من شراء شمامة أو بطيخة ترعرع قلوب الأولاد ، وإذا شرب من قلة ماء حتى ارتوى ، وإذا ، وإذا « و ذا لم يعرف ما هى المعرفة حقاً . وما هو الحب حقاً . وما هى أوروبا وما هى الثلاجة الكهربائية .

« ما كان ايرى أو يعرف أو يتعلم ، أو يحب ، لولا أنه أدرك من ساعات مراهقته الأولى ، أن فى الحياة نشوة روحية هائلة تسمو على كل المقاييس والموازين هى التى قد تزعزع الدرس وتهز كيان المستقبل ، ولكنها هى هى علاقة النفس الموعودة بالوجود ! والخلود

« كان فى ذلك العمر الباكر يرى الدنيا ماثلة فى صوره تلك الفتاة النحيفة التى تضع فى أذنيها قرطان من الذهب ، هما كرتان صغيرتان متدليتان و تضع فى رسغ اليسرى سلسلة رفيعة من الذهب بدل الخلخال .

« كانت مثله تسبق زمانها ، وعرفت لساعتها الأشياء الرفيعة ، كيف تأسره ، ولم يعد أحد من رفاقه يستطيع النظر أو الإشارة الا تلميحا

أو اعجابا ، « كانت له قبل أن يصير لها ، إنها لن تصير له ، إلا فى خياله ، فقد كانت بينه و بينها جبال و تلال ، من الخيالات والاحلام » .

* * *

هذه هى قصة الحب الأولى ، هذه هى أضواء الفجر على حياة حافلة .

ثم كانت قصة « آدا » .

« كانت عيناها مزيجا مدهشا من الظلمة والنور ، من النعاس والظلمة ، من الخيال والحقيقة ، من التضحية والتمرد » .

وسافر الصاوى إلى باريس وعاش هناك واحب .

« ذلك الدور العنيف من حياته المقيد فى الشرق بقيود الحرمان ينطلق فى الغرب بغير حساب

انمحت من حياته تلك الحلقة النارية فهو لا يحاول بهذه الصفحات زهواً ولا مباهاة ، وإنما أراد أن يرد إلى الشباب بعض وديعته الغالية ، هى حياة قلب غض بكل ما فى الحياة من محاسن أو مساوىء » .

كانت هناك قصص ، لقد كاد الصاوى أن يعيش هناك ، وأن يسلم حياته كما قال ، ولكنه تذكر القيود التى ارتبط بها فى مصر .

« كان غارقا فى مسئولياته ، هل هو طائر طليق حر فى حياته ؟ كلا أنه مقيد إلى حد ما ، إلى حد كبير ، بمسئوليات أدبية ، إذا أنكرها تنكرت له المادة . وهذه رسالة من حبيبته التى هجرها ، تعطى صورة لذلك الوفاء ، وفاء امرأة غربية لشاب شرقى ، وفاء فى الحب ، وهناك من جانب الشاب وفاء آخر ، وفاء فى الحب أيضاً ، أنه صراع عجيب ، ليس مسئولا عنه هو ولا هى ، وإنما القدر !

« أنك ستبحث طويلا ، لن تجد حبي ولا قلبي ، إنني وهبتك هذا القلب منذ رأيتك وحدثتك ، ولن أستطيع أن استرد هبتي ، وإن كنت انت ترفضها سيظل قلبي وفياً لشخص مجهول مر في حياتي » .

ويصور الصاوي الحب على انه صراع ، على أنه حرب .

« أيكون الحب صراعا أبدا قتالا ، ولو كان ظاهره الوئام والسلام .

أيكون الحب كله ، حتى في أقصى نشوته قائما على شهوة الانتقام ، ولذة الإيلام ، الويل للحبيب من الحبيب » .

وهذه قصة أخرى من باريس .

والصاوي لا ينسى ، أن الذكرى تحفر في قلبه آثاراً بعيدة المدى .

« قلت في نفسي ترى ماذا يكون حالي لو إني رأيتها وسمعتها في سن العشرين أن السنين القليلة التي عشتها بعد هذه السن قد انقذتني من شر مستطير ، أو حرمتني خيرا كثيرا ، إذ من يدري في الواقع أين هو الخير من الشر ، ربما فتحت لي هذه الفتاة أبوابا من العزاء أو الهناء لو إنني اتصلت بها وأوثقت معها عرى الود ولكنني نفرت منها ، كأنها أفعى !

فلماذا فررت ونفرت ، اهي قراءتي وأدماني المطالعة والنظر في تاريخ الغابرين وتجارب المعاصرين هي التي حملتني على النفور والفرار !

أم أن شيئا خفياً يحرسني ويذود الشر عني كدعوة أم حنون أو بدلي مسلم مسحت على رأسي في طفولتي أو شبابي ، أو بركة كاهن اسرائيلي شملتني في طريقي إلى باريس ، أم هي حياتي الذاتية المتعلقة بغيري الرازحة تحت عبء مسئوليات خطيرة فلا أستطيع أن أمرح طلقا كالعصفور يوماً واحدا لئلا أعود إلى القفص مهشم الريش مقصوص الجناح .

ويعود الصاوي من باريس ليستقبل حياة جديدة ، و اشرق نجمه

إشراقا سريعاً ولمع لمعانا خاطفا ،وكان بهذا هدفالحب جديد .

ومن حب إلى حب وعاد الصاوى إلى حيرته ..

« قال لها بصراحته المعهودة التى تبلغ الوقاحة أحيانا . ماذا تريدين ، إن زواجا ان يكون بيتنا ، فانت حديثة السن وأنا لم أعد فتى . . وأنت ذات نشأة انجليزية وأنا أحب اللغة الفرنسية . وأنت لست موفورة الاناقة وانا اهيم بالمراه الانيقة . ولو كانت أبشع بنات حواء . .

ثم قبل هـذا كله . أنا لا أفكر فى الزواج ولا أؤمن بالزواج وأمامى جهاد طويل ..»

ولـكن الصاوى مايزال فى حيرته .

« احترقت الاسلاك واحترقت الضلوع ، ثم كانت الرؤيا ، فرت نجاتها الازلى على القلب بطابع الحب ، ولـكن ذاك عهد من حياتى قد مضى بين تشبيب ، وشكوى ، ونواح !

« .. إن الـكاتب فى حاجة دائما إلى تلك الخدرات الروحية التى تجمل فى نظرة العيش . وتلونه بألوان بهيجة .. وتجعله يسمع فى نفسه أراء لا تحددها الرغبة ولا الفتنة ولا الغيرة .. »

ولـكن .. هل يجوز الـكاتب أن يتزوج ! وأن يقيد نفسه ، وهو الطليق الذى يجب عليه أن يطـير ويذهب إلى اقصى الأرض فى سبيل مهنته وعمله .. »

وهل يسعد الـكاتب الذى يحب مهنته اذا تزوج !

هذه القضية . . التى عاشت سنوات فى نفس الصاوى وتفكيره « وأشد ما يكرهنى فى الزواج فكرة الأولاد ، أنا لا أرى نفسى أنانيا إلى حد أطمع معه فى الذرية وما يبق فى العمر ما يسمح بتربيتها حتى تكبر . ولا فى القلب

ما يسمح بأن يذوب لهفه على طفل عليل بين البكاء والعويل ومن أشد ما يكرهني في الزواج أيضاً ، هو فكرة حرماني من الأسفار ، والرحيل عن الأوطان ، فانا الآن رجل خفيف — احمل لا الظل — أستطيع أن أسافر إلى أي مكان في العالم بعد ساعات واصل إلى أي ركن في الأرض بعد ساعات ، وليس ورائي عائلة ، والزواج علة العلل ، لأن الرجل الطيار يربط ذيله بوابور الزلط.

وفكرة السفر إلى بلاد واق اواق هـذه ليست بدعة ، إنها جزء لا يتجزأ من حيـاة الـكاتب ومن روحه ، ومن فكره ومن جسمه جميعاً ، إن كل حقائبه هي قلبه السيال ، فيستطيع أن يكسب عيشه في كل مكان فهواية الكاتب الرحالة هي التي تتجمع على البحث عن الشخصية الإنسانية اكثر مما يستخفه على الجرى وراء المواقع والنجوم ، أو حتى آيات الفنون التي كانت دائما تشغل عشاق الأسفار من عهد سليمان إلى عهد كوك .

إننا قد ننشد جبال سويسرا المتوجة بالثلوج الناصعة ، ولكننا ننشد قبل ذلك الناس فهم الذين يقودوننا في مسالك الأرض وفي لجج البحر وفي طبقات الجو ، شاعرين في مسيرنا بذلك القلق الذي لا يمل والذي يسوق الرحالة الأصيل كما تسوق المرأة دون جوان .

وإن هذا الهناء الروحي المنسوب إلى الحياة الزوجيه هو الهدوء .

والكاتب يتطلب الاضطراب الزواج هو النظام ، والكاتب يحب الفوضى وهو الاتزان ، والكاتب ينشر الزعزع والزواج هو الاستقرار .

فاننا لكي نكتب يجب أن يختل ميزاننا ، ويتزعزع كياننا ويضطرب حالنا ، ويخفق أشد الخفوق ، فؤادنا ، ومن ثم تنشأ عن الحياة الزوجية تلك الغيبوبة السعيدة التي تشبه تدخين الأفيون ، فلا يفيق المرء إلا مصدع الرأس ، رخي الأعصاب ، فاتر الفكر ، هامد الشعور .

« وهكذا يقارن غضبان أسنا بين حياته الزوجية الخامدة الهادئة تحت انقاض الهدوء والملل في بيئة الأمن ، وبين كل تلك اللذات الروحية والجسدية التي صارت حراما عليه في شكل البيوت والفنادق أو البنسيونات التي تؤويه خلال رحلاته ، المبنية من حجارة أو خشب ، المقامة على ضفاف البحيرات الصافية ، أو الصخور الزهرة ، أو تحت سفح الجبل ثم تلك الحدائق الغناء التي ليس لها أبداً نفس الزهور ولا نفس الظلال ، ثم ينابيعها وجـــداولها المترقرقة ذات الموسيقى ولا ذات الانغام ، ثم شمسها التي لاتدخل أبداً من ذات النوافذ ، ثم امطارها التي لا تهطل أبداً لمستوى واحد فتهطل مرة رزازاً ، ومرة مدراراً ، ثم الخادمة التي ليس لها قط ذات الابتسامة ، ثم أصوات أولئك المارة أو الباعة الذين يتجولون تحت نوافذه ولا يتكلمون أبداً بذات اللسان » .

هذه حيرة الـكاتب بين الحب والزواج والرحلة ، يصورها الصاوى على إنها أقسى مرحله في حياة الـكاتب حين يريد أن يضحى ، أو يمضى أنانيا وراء فنه ومهنته .

براهيم المصرى



يلتقى ابراهيم المصرى مع أحلامى ، فهو فيما يكتب وفيما يترجم وفيما يلخص عن كتاب الغرب يصور النفس الحائرة المحبة المتطلعة إلى المجد والحب وهذه هى الزاوية التى يواجهها دائماً . إنه ظامىء إلى الكمال الروحى يبحث عن وسائله وأسبابه . ويقول أن هذا الكمال لاسبيل اليه لأن المجتمع يضطر صاحب المثل العليا إلى النفاق ليعيش وأن القليل منهم هم الذين استطاعوا التغلب على الغرائز والسمو عن انصاف الحلول وانصاف الفضائل . ويعد تولستوى استاذه الروحى فهو عنده الفنان الأكبر الذى دعا من الصفاء .

ولقد قرأت له منذ عام ١٩٣٠ وأعجبت به . وشاقنى أسلوبه العربى البليغ وتناوله للموضوعات وحرية رأيه . ولعله أول من كتبوا الدوامات المسرحية وقصته « نحو النور » التى نشرها متفرقة فى البلاغ وضمها كتابه الفكر والعالم قد سبقت « أهل الكهف » التى كتبها توفيق الحكيم والتى عدت فى تقدير بعض الناقدين أول قصة من قصص الحوار .

ولعل هذه القصة تمثل شخصية كاتبها . فهى كما وصفها « مرحلة من حياة عبقرى » تدور حول الصراع الذى يلقاه الفنان فى بيئته وبين زوجه وأهله عندما يحس أن أحداً لا يفهمه أو يتجاوب معه .

ولقد عنى ابراهيم المصرى بأدب المقاله وتخصص فيها . ولكنه عكف فى السنوات الأخيرة على قصص الحب وكتاباته وتناول الحياة الاجتماعية وعندى انه كاتب الحب الأول فى مصر . وله فى هذا أراء رصينة جاءت نتيجة دراسات مستفيضة وخبرة واضحة .

« أى قيمة للجمال الشائع فى نظر الحب . الحب لايحفل بمظاهر الحس البراقة التى اصطلح عليها المجتمع . الحب يتصيد الجمال الخفى . الجمال المستور .. »

ومن نظرياته التى التقى معه فيها قوله « الحب فى نظر المرأه هى كل شىء .

ولكنه لن يكون أبدا كل شىء فى نظر الرجل . والمثل الأعلى للمرأه هو كمال العاطفة . والرجل الذى يتغالى فى العاطفة . ويسعى لاكتنالها تحتقره المرأه من أعماق نفسها وتكرهه لانه ينافسها . أما الذى يحبها وهو لا ينفك يؤكد سلطانه بالبحث عن قيم عليا أغلى وأثمن منها ، فهو الرجل الذى تعجب به وتحبه وتشجعه لانها ترى فيه رمز الرجولة التى لا تناقض طبيعتها .. »

وهو يصل إلى جوهر النفس الانسانية ولبابها فى تصوير هذه التجربة « كثيراً ما نشعر أننا فى حاجة إلى الحب . ثم تتلفت حولنا فلا نجد المرأه المثالية المنشودة التى نبحث عنها فنهرع إلى أية امراه تلقى بهـا الظروف فى طريقنا ثم نحاول أن نصطنع الحب بها . ولكن الايام تمر واصطناع العاطفة يغدر بنا وينقلب شيئاً فشيئاً إلى استهواء ذاتى يجذبنا اليها ويربطنا بها ويدفعنا

بالرغم منا إلى حبها حبا قويا عنيدا لم نكن نتوقعه أو نحلم به . ثم نستفيق فاذا المرأة التى تورطنا فى حبها تبدو أمامنا على حقيقتها مخلوقا شائعاً تافهاً سخيفاً لا يمت بأى صلة إلى الصورة المثالية التى كنا ننشدها ، فنحاول أن نقاوم ولكن العادة المستبدة تتمكن منا .. ونصل إلى المرحلة : أننا نحب امراه ونشعر فى الوقت انها غير خليقة بنا . وأننا فى صميم نفوسنا لانستطيع ونحن نحبها إلا أن نحتقرها ونكرهها

وابراهيم المصرى أديب اشتغل بالصحافة واحترفها ولكنه ضن بأسلوبه عن الابتذال وصانه عن السرعة التى تذهب بقوته ونقاءه . وقد تناول حياة المحبين من الأعلام والعظماء والكتاب والفنانين وصور حياة كل عاشق وكل عاشقة وقد نشر فى سنواته الأخيرة مجموعة من القصص العالمية الرائعة كانت عاطفته واضحة من وراء قصص أصحابها وله قبل ذلك مجموعة من المؤلفات التى هى مجموعة مقالات نشرها فى البلاغ وغيره من الصحف عن الحضارة والفنون والآداب فى عصر الاله . وله فصول قوية عن بيرون وبروست وبودلير وهو من المدرسة التى بدأت تبرز بوضوح فى عام ١٩٣٠ وما بعده وزملائه الصاوى وابراهيم ناجى . هذه المجموعة التى انشأت الصفحة الأدبية لاول مرة فى الصحافه اليومية وغذتها بفنون عن المقالات والقصص

وأكاد أعتقد من وفرة ما كتب ابراهيم المصرى من قصص الحب أنه لم يغادر قصة رائعة من هذه القصص العالمية إلا وكتبها بأسلوبه الرائع وطريقته الشاعرية التى تجد فيها عاطفته وروحه وأشواقه الروحيه .

وأبراهيم المصرى من ذلك النوع الذى يعكف على نفسه ويحب العزلة ولا يختلط كثيراً بالمجتمع . ولا يعرف عنه انه سافر كثيراً أو أحب الأسفار . وربما عوض ذلك بالسفر فى بطون الكتب وإن كان قد عرف عنه انصرافه فى الأيام الأخيرة إلى كتب العاطفة والحب وقصصها ودراستها . وهو من

المشغوفين بالأدب الأوربى والفرنسى بوجه خاص . وله أسلوب متميز فى الترجمة ينقل به أفكار المؤلف فى أسلوب عربى ناصع رصين .

ولذلك فانت لا تجد عند « ابراهيم المصرى » هذا اللون من الرغبة فى الصراع أو السجال وهو لم يشترك فى مثل هذه الألوان . بل حرص دائماً على أن يكتب فى « موضوعية الأدب » وإن يمارس دراسة التراجم للابطال والأدباء والأعلام .

ولما أرتفع السن به بدأ يرسم صورة للحب والكهولة .

« قد يشعر فرد من الأفراد أنه إنسان ممتاز وإن مواهبه قد أعدته لعظائم الأمور فتراه يقضى أيام صباه فى تثقيف عقله . وترقية وجدانه . وتهذيب روحه . وتطهيرها من شوائب النقص بغية الوصول إلى هدف عظيم يمثل فى نظره مثلا أعلى .

فاذا ما أقبل هذا الرجل على الكهوله أحس فراغا عميقا يكتنفه .وعزت عليه حياته التى أمضاها فى شرف الكفاح والعمل . وطافت به أشباح المفاتن والمباهج الدينوية التى حرم نفسه عامداً منها ليستطيع أن يجاهد ويصل فاستيقظت فيه بغتة رزيله الطمع واحتواه حب المال وسحره إغراء المرأه وجرفه بتار العبث والتمتع . ويشعر الرجل أول الأمر بالقلق والحيرة والتخبط فيتألم . ولكنه يظل يتأرجح بين سموه النفسانى القديم وبين شتى عوامل الاغراء المتالبة عليه قيود أن يفتقد نفسه . ويثوب إلى رشده . وينتقض على ضعفه . ويذكر ماضيه ويرتد لا تذا بطيف مثله الأعلى . واذا حبه المراه والمال وهى تفتح عينيه على مفاتن لم يكن قد أبصرها من قبل تلوح له بالموت القريب فتشده اليها وهى تهمس فى أذنه انه لا حياة بعد هذه

الحياة وأن كل شيء باطل ما خلا المتعة البدنية الأصلية في وجوده . وهذا الشيطان يحوم حولنا جميعا . ويتربص بنا جميعاً . ولا ينفك يوسوس لنا في مهبط العمران تتنكر لماضينا ونخون مبادئنا . فانحدر في مغرب حياتنا قرب ذلك الشيطان .. »

واني لاذكران « إبراهيم المصرى » كان على رأس فريق المجددين من الشباب عام ١٩٣٠ . كان استجابة صادقة للروح الجديدة التى بعثها رواد الأدب فى الأدب العربى المعاصر فاتجه بالأدب وجهة الترجمة والابتداع معا . وحرص على أن لا تأكله الصحافة أو تدفعه إلى محيطها الجارف فظل صامدا فى ميدان الأدب الرفيع لايريم وفى البلاغ وفن التراجم ودراسة الشخصيات والحب ودراسة العاطفة وقدم للادب العربى باقة رائعة من هذة الألوان التى تجد صداها فى النفس الإنسانية الشرقية لأنها تصور العاطفة فى سموها وانحدارها على السواء

واست انسى لابراهيم المصرى انه رحب بانتاجى فى مطلع العمر ورغب الى ان ارسل اليه بما اريد نشره وقد كنت يوميا فى الريف لا اجد من يأخذ بيدى الى مجال الادب الرفيع

ميخائيل نعيمه

« ثلاثة » أشياء فى حياة ميخائيل نعيمة تبهر من يدرس نفسيته و يبحث وراء معالمها الظاهرة : الصداقة الخالدة ، والوحدة الصوفية ، والتعمق فى فهم الحب أما الصداقة الخالدة فهى صداقته لجبران خليل جبران ، وإن من يقرأ كتابه الضخم الذى كتبه عن صديق شبابه وصنو روحه « جبران » يدهش لهذه العاطفة العميقة الضخمه التى تظهر فى كل سطر من سطوره وتشع . حتى لقد عد هذا الكتاب من التراجم الرائعة ، التى ترسم صورة الصداقات الأدبية الرفيعة التى قلما عرفها الشرق من قبل ، ولكن هى الغربة والألم والأدب والنوحات الروحيه المزدوجة بين نفسين تطلعا إلى الحياة والمجد والحب ، ولعل وحدة « ناسك الشخروب » مرتبطة إلى حد ما بوفاة صديقة جبران فانه قد هجر نيويورك سنة ١٩٣٢ واعتزل الناس فى صومعته فى الشخروب حيث اطلق عليه لقب الناسك .

ولكن ميخائيل لا يريد أن يقال عنه أو يقول عن نفسه أنه ناسك ، «ما أنا بالناسك ولا هجرت الناس . ولا هجرنى الناس ، إننى أحيا للناس إذ

أحيا لنفسى ، وأن اتحدث إلى إنسان عينا لعين ووجها لوجه لخير من أن أتحدث إليه بالحبر والقرطاس ، وأن أكسب معرفة إنسان لأفضل من أن أكسب اعجابه ، فالوقت ليس من ذهب .

وهو يرى أن العزلة بالنسبة له كالماء والخبز والهواء فهو حريص كل الحرص على عزلته ، ولعل بين عزلته وبين حبه العميق للطبيعة رابطة ، أنه يحب الطبيعه على صورة لم تعرف عن الشعراء والفنانين يقول « خليق بى أن أشهد بما للطبيعة العجماء فى عزلتى من أثر بعيد ، وأياد سخية ، فانا منذ حداثتى قد الفت هذه الطبيعة الجبلية وشغفت بصخرها وترابها وأشجارها وأعشابها وطيرها وهوامها وماشها وهوائها وسمائها وكواكبها وأنوارها وظلالها والوانها المتبدلة فى كل طرفة عين تبدلا يسحر اللب والعين ، والبحر الحالم بدا عند اقدامها ، الفتها وشغفت بها فى كل فصل من فصول السنة وفى كل ساعة من الليل والنهار فانا أحسها فورات من النور ، وآونة السنة تخاطبنى بلغه أولات ما حوتها قط بطون المعجمات ، وحينا يغمرنى الشعور بامومتها فأرانى كالرضيع على صدرها ، ولكنها ترضعنى من ألف ثدى وثدى . وتلمس اجفانى بالف كف وكف ، وتعزف لى على آلاف آلاف الاوتار ، وهى فى كل ذلك رفيقة إلى أقصى درجات الرفق ، وجواده حتى آخر حدود الجود » .

أما الحب فان ميخائيل نعيمة يصل فى تصوير هذه العاطفة إلى مدى بعيد من العمق ، هذا العمق الذى يعطيك إيمانا بصدق تجربته وتعددها وتنوعها .

« ما انفك الحب منذ أن كان الناس ، يجعل من الصعاليك ملوكا ومن الشياطين ملائكة ، ومن الأنذال أبطالا ، ومن سلالة آدم وحواء آلهة ، خليقة بالتسبيح والعبادة ، ومن ذا غير الحب يستطيع أن يسمو بالانسان إلى حد أن يجعله يخاطب إنساناً نظيره بمثل هذه الكلمات ، « معبودى » .

إنما الحب وحده يملك السر فى تحويل الانسان إلى ما فوق الانسان ،

والحب وحده تبارك سحره — يملك المفتاح إلى قدس اقداس السعادة التي ينشدها الكل فلا يلمحون وجهها الالهي إلا في لحظات نادرات هي من العمر زبدته ولبابه وناره ونوره وما تبقى فرغوه وقشور، وحطب ورماد.

نعم: هو الحب يجلو بصائرنا وأبصارنا، وإذا بنا مرآة صافية تعكس المحبوب صافيا، وإذا المحبوب أكثر من عظم ولحم ودم، وأكثر من يشعر بعقل، وينطق ويأكل ويشرب ويشتهى أشياء، ويهرب من أشياء. وإذا به فتنة وروعة وجلال وطعام وشراب لا تستقيم لنا بدونها حياة، فهو الكيان المتمم لكياننا وهو الحيـــاة في حياتنا، والرجاء في رجائنا، والإيمان في إيماننا، به نـكتمل ونخلص، وبدونه نبقى ناقصين ونهلك، به نحيا وبدونه نموت، به الوجود حلاوة وهناءه، وبدونه حسك وحنظل».

هذه هي ابرز معالم حياته، وأن الكثيرين ليربطون بين موت جبران وعودته إلى لبنان، ترى هل كانت وفاة صاحبه وصفيه نهاية مرحلة في نفسه دفعته إلى أن يتحول إلى التأمل، ترى هل فشل في الحب فانتقل إلى الطبيعة يمزج بها وجوده.

لقد عاد بعد عشرين سنة قضاها في العالم الجديد فلماذا؟ إنه يصور فلسفة العوده ويرسم لنفسه سر التحول: ويضع أيدينا على نقطة الانقلاب النفسي الذى اعتراه ودفعه إلى أن يترك نيويورك الصاخبة إلى صومعة معزولة في الجبل الاشم

«إنني بعـد عشرين سنة قضيتها في الولايات المتحدة شعرت بحاجة إلى الاستحمام في نور البساطة العارية من زخرف المدينة وغشها وتشويشها، فقد ابصرت الحياة حقيقة بسيطة عارية، ورأيت الناس في كل ما يعملون ويقولون ويؤمنون، إنما يسيرون عرى الحياة باقيسه لا تحصى من أوهام تقاليدهم ومعتقداتهم، فيخسرونها من حيث لا يعلمون. ولذلك يتألمون ويشقون، وقد وجدت أن الله يبدو سافرا في هذه البلاد السافرة، حيث أنه في مدينة

كنيويورك تحجبه طقبات كثيفة من ضباب الأوهام والتقاليد الكثيفة فلا تلمحه البصيرة حتى يخفيه البصر ولا تقترب منه الروح ، حتى تعصية أهواء الجسد ونزعات النفس .

هذه الحضارة الغربية الصاخبة القائمة على مقاييس المادة لا يمكن أن ترضى هـــذه الروح الهائمة الطائرة ، الشاعرة التي تؤمن بالمثل العليا وبالعاطفة وبالروحية وبالنسك والجمال المجرد . لذلك كان لا بد أن تقع هذه الوحشة بعد موت جبران فيراد ميخائيل من الاعماق إلى أن يعود .

« عدت وفى أذنى ضجيج مدنيات لا تحصى ، وفى رأسى براكين من الافكار وفى قلبى حنين إلى عزلة أستطيع أن أغرق فى صمتها وسكونها وجمالها فاطهر إذنى من الضجيج وأفرج عن رأسى ما فيه من البراكين ، وأبرد بعض ما فى قلبى من الشوق والحنين »

تراه الآن بعد ربع قرن من عودته أحس بالهناء ، وهل يمكن أن تهنأ النفوس الطامحة الدقيقة الحس العميقه الغور ، أو تقر ؟ لعله فى شوق إلى تجربة أخرى . لقد شارك ميخائيل نعيمة فى صناعة هـذا الفن الجديد الذى عرف فى الأدب العربى الحديث باسم « الأدب المهجرى » وكان له إلى جوار أخوانه وزملائه نصيب كبير ، إنه تتلذ على الاجنحة المتكسرة . وله « الاباء والبنون » ، وزاد الميعاد وهمس الجفون . والبيادر ، والنور الديجور وغيرها من الآثار التى أصدرتها الرابطة الأدبية ، وله « الغربال » الذى يعد ركيزه من ركائز الاتجاه الجـــديد فى الأدب العربى المعاصر إلى الابتداع ومحاربة التقليد .

ومنذ ١٩٢٢[١] وميخائيل نعيمة يعلن رأيه فى إيمان « أن الشرق لنى غنى

(١) الهلال

عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية . أنا عارف أن المدنية الغربية وأن تداعى دنيانها لا تزال براقة غرارة وإنها لن تهوى إلى الحضيض قبل ان تشمل المعمور باسره ، ايرشقنى من يشاء بانى رجعى يريد أن يعود بنا إلى مجاهل الدين وخرافاته وهو فى هذا الاتجاه يختلف عن صديقه وصفية جبران الذى كان كلفا بالحضارة مؤمنا بها .

ولعل أبلغ صورة لفلسفة ميخائيل نعيمة تتجلى فى ايمانه بخلود الفن والأدب . «غدا ستغمرنا لجة العدم باحزاننا وأوصابنا . بفقيرنا وموسرنا بوجهينا وفقيرنا وستقوض الأيام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية فلا تبقى إلا الخالد الجميل والحق فينا .

ومن ذا الذى يتقى ليخبر عن الخالد والجميل فينا . إن لم يكن الأدب والفن .

انطون الجميل



ليس يفتنني فى شخصية « انطون الجميل » الانسان إلا عبارته الخالدة :

« اعز ما يجول بقلبي من الامانى العيشة بسلام . سلام مع نفسى وسلام مع الغير » وانطون الجميل كاتب وأديب . قد طوته الصحافة فعاش لها . بل لقد غمرته حتى قطعته عن الانتاج الأدبى . ولكنها لم تستطع أن تصرف نفسه عن ايمانه بالسلام النفسي بالرغم مما تدفع الصحافة إليه من صراع . .

وفى « انطون الجميل » ذلك الطابع الحلو ، فى دمائه الخلق والسماحة التى نعرفها فى جرجى زيدان وخليل مطران ، وقد دفعه استعداده الفنى هذا أن لا يتعصب ولا يتميز . فكانت عنده من سعة الأفق والرغبة فى السلام ، ما حال ذلك بينه وبين الانزلاق إلى العنف والخصومة .

بدأ حياته معلما . ثم اتجه إلى الأدب وأعانه على ذلك ثقافته الفرنسية

والعربية القويتين . وقد هاجر من بيروت إلى القاهره سنة ١٩٠٩ ، فى تلك الفترة التى هاجر فيها الذين ضاقوا بالاضطهاد فى الشام . وفى القاهرة أصدر الزهور وحرر فى الاهرام الفرنسية واشتغل بالترجمة . وتنقل فى وظائف الحكومة . ثم اعتزلها حيث تولى رئاسة تحرير الأهرام .

وأثار كتابة عن شوقى ضجة ضخمة . وفتح باب سجال أدبى عنيف بين طه حسين والعقاد حول الثقافة اللاتينية والثقافة السكسونية فقد تناول شوقى بأسلوب فيه رقة ويسر . ووصف العقاد هــذا الأسلوب بأنه طريقة الصالونات الفرنسية التى لاتصرح ولا تهاجم ولا تنقد فى قوة ولا تكشف عن العيوب الأدبية فى وضوح .

ونسى الناقدون أن هـذه هى طبيعة انطون الجميل وانه كان فى أسلوب كتاتبه عن شوقى انما يصدر عن طبيعته الخالصة التى لا يستطيع أن يعقها . .

وأسلوب انطون الجميـل شعرى فى صوره واخيليه والفاظه وتضمينه للشعر وروايتاه « أبطال الحرية » عن الانقلاب العثمانى و « السموءال » عن وفاء العرب تعطى اتجاه انطون الجميل والرابطة بين ماضيه وحاضره . فهو عربى تتمثل له العروبة فى وفاء السموءال . وهو مؤمن بالحرية تتمثل عنده فى صورة تحطيم الطغيان العثمانى

ولقد كان لانطون الجميل حبا عميقا عفيفا : ذلك هو حبه « لمى » . كان يحب « مى » حبا صامتا . إذ جمع بين روحيهما التقارب فى الاتجـاه الأدبى وقرابة الموطن وغربه الدار .

وفى رسائله الى «مى» صورة نفسه .

« يلذ لى يا مى أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب . لأن كل وصف قليل إذا ما قيس بصفاتك . وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك فاسم «مى» وكفاك به وصف ولقب قد اصبح فى هـذا الجيل يرادف حسن

البيان وفصاحة اللسان ونبوغ العقل وكبر القلب .

وبعد فقد طلع على كتابك فى ليلة العيد مع هلال الشهر محوطا بهالة من نور هو نور نفسك الفياض . لا عجب اذ تقبلت مافيه من عواطف سامية وما معه من هدية ثمينة شاكراً ممتنا . فانه ما دون ذلك يستوجب الشكر والامتنان . فكيف بذلك كله محلى بما شرفتنى به من صداقة عالية .

على انى ما أتيت إلى آخر كتابك حتى مازج شعورى هـــذا شئ من الاحتجاج ، الاحتجاج الشديد ، على ما نسبته إلى من النقمة على خطك والضحك على حروفك ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع وطريف ولا عبرت حروفك عن كل سام وشريف ..

« بلغت إلى البحر ما زودتنى له من سلام وتحيات . الساعة الآن متأخرة من الليل ولا يسعنى إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة ذات الفضل العميم على من مثل هذه الساعة . فاقف طويلا عن الكتابة ضائعاً فى بحار الذكريات . بل أن الكلمات تعصانى فابحث عنها ولا أجدها . »

ولكن الأمر بين انطون الجميل و «مى» انتهى إلى شيء من القطيعة بعد عودتها من المستشفى فقد كان شغل عنها أثناء مرضها »

وقد لخص انطون الجميل حياته فى هذه العبارات الموجزة الواضحة :

« يقولون أن فى حياة كل انسان ملحوظة رجلا وامرأة وكتابا . كان لهم الأثر الأول فى تكوينه أدبيا وخلقيا ..

والرجل الذى أثر فى تكوينى الأدبى هو الاستاذ الذى كان يدرس لنا البيان والبلاغة . والمراه التى كان لها الاثر البالغ فى تكوينى الخلق فهى «امى» التى علمتنى الجلد والتسامح ومعاملة الناس بالحسنى .

أما الكتاب فان المثل اللاتينى يقول « احشى رجل الكتاب الواحد » ولعل خير كتاب يفيد منه الانسان هو « كتاب الناس »

جميلة العلايلى



« على [1] وجهها وجوه كثيرة تحمل من الكآبة مسحة باديه . ويروعك هذا الجرى المتواصل وراء الفاظها التى تحتبس وراء شفتيها كلما همت بأن تتكلم هامت يديها بجولة غير محدودة . تتبرم بدنياها وتنشد فى أحلامها ما عجزت عن تحقيقه فى يقظة العيش .

وهى ليست شاعرة أو فنانة فحسب — بل هى — راهبة لاتقنع بنشد أن الطمأنينة والصفاء فى هيكل واحد . ولكنها تنتقل من دير إلى دير تجر وراءها أثقالا من الشجن وكأنها تخشى أن تهوى ثانية إلى عالم الماديات والحب الضائع والحسنه التى تجتزىء بالشر .

(١) هدية : كتبتها فى مجلة الحديقة والمنزل (سبتمبر ١٩٣٨)

وإذا خذلتها تدرك وراء ذلك كله ظمأ لا تنقع له غلة ، يحدوها إلى ارتياد المجهول تتلمس فيه قبض الريح فتتألم لها وتحوطك رغبة من الاشفاق عليها .

تعذب نفسها وتشقيها وفى يدها خلاصها . لذا كان من العسير أن يفهمها أى رجل وكذلك من العسير أن تحب أى رجل لأنها لا يمكن أن تخدع بالحب فعاشت العشرين من عمرها ويزيد مجنحة حالمة تتنقل بين الأرض والسماء . عذاب لا ينتهى . وظمأ لا تنفع غلته وهى مستوية القلب — تحلق — ولكن سرعان ما تجذبها الأرض متبرمة ، ثم تدوى فى أذنها أناشيـــد الرجاء ويختلجها الحنين إلى المجهول النائى . إلى الغامض الذى لا يفسر . ولا يسقط منه قناع وقد أبت الطبيعة عليها ذلك بعد أن اقحمت انسانيتها السامية بغرائز ترابية . فى حمأتها تتوالد جرائم اللذة : لذة الجسد ولذة القلب .

امراه بما يصطخب فى قلبها من تيارات فائرة وينابيع صافية ساجية جمة المحاسن وافرة الرواء . وقديما تلبس هذا المرض فئة من الشعراء فأحالهم شكاه متبرمين . ولطالما حاولت أن تكون فتاة حياة وتعيش على الأرض التى جبلت منها طينتها . وحاولت أن تلقم ذهب روحها بشىء من النحاس ليصلب عوده على أنها لم توفق فى محاولاتها مع أنها فى مقتبل الشباب ولها من هـــذا الشباب وسامته وعبقه .

ولو شاءت للعبث بالحياة والرجال بطرف أناملها فهى محبوبة مرغوب فيها ولكنها تريد أن تشاهد دخان نفسها وهى تحترق فى بطء لتسجل شجوها فى سطور وترسمها فى خطوط وظلال وتصورها فى نغم والحان شاعرة .

هذه لوحة فنية رسمتها جميلة العلايلى لبطلة اطلقت عليها اسم « هندية » ولا نعدو الواقع إذا اعتقدنا أنها إنما كانت ترسم صورة نفسها فى هذه الفترة من الزمان .

أحبت الأدب منذ صباها الباكر . وأعانها على ذلك طبيعة شاعرة وبيئة علم وثقافة . وجو رائع . فقد فتحت عينيها على ضفاف المنصورة حيث النيل هناك يرسم صورة ساحرة .

وقد التهمت منذ صباها كل ما وقع فى يديها من الانتاج الأدبى وبدأت تكتب مبكرة ففى عام ١٩٢٦ أصدرت أول رسالة لها. وعندما أتيحت لها فرصة الانتقال إلى القاهرة أندمجت فى البيئات الأدبية وأرتادت المحافل الفكرية وربطت أواصر صداقات أدبية متينة مع كبار الأدباء . وكانت من رواد أبولو ومن الشاعرات اللواتى اعتز بهن الدكتور أحمد زكى أبو شادى . وفى أبولو والرسالة نشرت طائفة كبيرة من قصائدها . ولمع اسمها وهى فتاة لم تبلغ العشرين وكانت من صديقات مى والمعجبات بهدى . ثم اتصلت بالصحافة . وأنشأت مجلة « الأهداف » وبدأت تكتب القصة وتعبر عن آرائها بالنثر والترسل أكثر مما كانت تفعل قبلا . وبقى الشعر روحا طليقا يهفو إليها وتهفو إليه بين حين وحين . واستهواها التأليف أكثر مما استهوتها الكتابة فى الصحف الكبرى .

وهى تؤمن بأن لها رسالة : « . أن لى رسالة خاصة أستطيع أن أقوم بها من وراء السماء أن اجتفيت هناك . ومن عبر البحار أن عشت خلفها . أن رسالتى أن الهم وأوجه . أن رسالتى كالكهرباء . تنتج فى سكون وصمت . بعيدا على الضجة الكاشفة .

وهى إلى هذا كاتبة فنانة . صادقة الحس . دقيقة الشعور . تعيش كل لحظة فى حياتها وتسجل كل لمحة فى وجودها . بالنثر أو بالشعر .

وقد رسمت عاطفتها فى الشعر والنثر صريحة واضحة . وكانت جريئة فى اتجاهها هذا الذى بدأته مبكرة .

وقد أحبت الرحلة والسياحة وسافرت إلى سوريا ولبنان وفلسطين وكان لمامن هذه الرحلات زاد نفسى عظيم .

وقد أحبت من أعلام الإنسانية غاندى وطاغور ، أحبت فيهما الروحانية العظيمة والإنسانية الصادقة ، .

وترى أن «مى» هى الرائدة الأولى للادب النسوى . وتؤمن بانها **صادقة الحس** عميقة العاطفة .

ولم يعجبها فى الأدباء المحدثين غير الرافعى .

وهى تؤمن برسالة المرأة كانثى وملهمة وموحية وداعية للخير وترى أن مكانها البيت وترى أن الهيئات النسائية ليست إلا أدوات للظهور والدعاية الكاذبه تقول ، على أننى أرجو ألا تستهين المرأة بمواهبها الأصلية وأن تثبت للرجل انها لا تضحى بالأسرة ابتغاء مركز اجتماعى تفاخر به . فان مفخرتها الأكيدة إنما تكون بتكوين الأسرة لتنشىء جيلا جديدا لا يعرف غير المعنى الإنسانى السامى .

سهير القلماوى



لا تعطيك أثارها شخصيتها . فاذا أردت تستجلى ملامح طبيعتها أو أو شمائل نفسيتها أجهدك هذا .. فهى لاتتحدث عن نفسها كثيرا . ولا تصور معالم حياتها . وتتلخص حياتها فى انها من الجامعيات الأول . وأنها تلميذة الدكتور طه حسين ..

وإنها بدأت دراستها فى الجامعة الأمريكية ثم اتجهت إلى كلية الآداب . ثم سافرت إلى فرنسا حيث قدمت رسالتها عن « الف ليلة » ثم عادت الى مصر فعملت فى الصحافة مع طه حسين فى كوكب الشرق ..

وآثرت البيئة الجامعية وتفرغت لها إلا من بضع قصص أو مقالات وفصول تنشرها بين آن وآخر . أو تذيعها . واتصلت إلى ذلك بالحركة النسوية وعملت فى ميدانها

ولعل الذين سمعوا صوتها وطريقة القاءها يدهشون لهذا الطابع العلمى الذى تحاول دائماً أن تلبس ثوبه . وهى كالسيدة أمينه السعيد فى أسلوبها

رجوله . وفى معالم كتاباتها ذلك الطابع الذى لا تكاد تحس معه انك تقرأ لانثى . ولعل مرجع هذا إلى أنها عاشت فى بيئة الجامعة والعلم والبحث طويلا

وهى تحب الرحلة . وقد اتيح لها أن تسافر إلى إمريكا وإلى بعض بلاد البحر الأبيض المتوسط كلبنان وقبرص وتؤمن بأن السفر يفتح افاقا جديدة .

وهى تؤمن بان الأدب للحياة وتقول « الأدب فى الواقع لا يمكن الا أن تكون له غاية . والحياة كلمة متسعة كما ترى تتضمن الفن . وقد تتضمن كل شيء . لذلك أرى أن الأدب لمجرد اللذة الفنية أو ليؤدى خدمة اجتماعية أو سياسية أو اليق بأن يكون موضوع المناقشة . والمشاهد أن الأدباء منهم من ينصب نفسه هاديا ومنهم من لا يعنيه إلا أن يقول ما يحسه . وكلاهما أديب بل أحيانا أديب ممتاز .. »

وقد كتبت سهير فى الثقافة عام ١٩٣٩ فصولا عنوانها « فى سبيل جيل جديد عرضت فيها لبعض أراء علماء التربية . كما ترجمت كثيرا من القصص عن كتاب الغرب .

ولكن سهير القلماوى بالرغم من هذا الطابع العلمى الذى تسبغه اليوم على شخصيتها — كانت لتقول شعراً فى عام ١٩٣٣ وهذا نموذج من شعرها :

فى سكون الليل يحلو لى البكاء ... فأروى القبر من روحى الوفاء

اترى روحك تسرى فى المساء ... فى سلام وسكون وصفاء

أم ترى حيرى تهيم فى الفضاء

يا حياة عشتها كانت ممات ... أنت فى القبر ومن قبل رفات

أنت سرت من سباب لسبات ... ضمك الموت ومن قبل الفناء

فضيت من عفاء لعفاء

كم رددنا الطرف والطرف حسير   وسكبنا الدمع والقلب كسير
وسئمنا العيش فالسعى عسير   آه   يارباه حتام الشقاء
أن حمى العيش فى جسمى كداء
اترى قـــدر للنفس الخـلود   كل من يدرى يولى أن يعود
قد عرفت اليوم ما سر الوجود   فارحمينى . خبرينى . ما الفنـاء
ان نفسى فى عـــذاب وعناء

ويعطى هذا الشعر صورة العاطفة العميقة . والروح المشرقة الطليقة . فهى تذكر إنسانا عزيزاً فقدته فسئمت العيش وسكبت الدمع . وهى تتعمق الاحساس فتسأل عن الموت والخلود والفناء . . .

وسهير القلماوى تعطى فى اثارها وإنتاجها المقل طابع العلماء أكثرمما تعطى صورة الادباء والصحفيين وهى فى هذا تختلف كثيراً عن بنت الشاطىء وأمينه السعيد .

فهى لا تمارس الكتابة بصفة دائمة وهى لم تمارسها كذلك إلا فى سنوات ٣٩ — ٤٢ وبالرغم من أنها بدأت عملها فى الصحافة بعد تخرجها من الجامعة وكتبت فى كوكب الشرق باب المرأة ، فانها تحولت فيما بعد إلى الكتابة ذات الطابع العلمى فأصدرت كتابها الاندلس .

وهى فى هذا الاتجاه تتمشى مع طابعها النفسى . طابع الاعتدال والتريز والبعد عن محيط الصراع . والرغبة فى اسباغ جو من الهدوء والسلام . فهى ليست مقتحمة أو مصارعه ولا تحب الدخول فى وفيهامساجلات . ذلك الطابع الانطوائى الذى يكعف على القراءة والمطالعة . وعلى رعاية الأولاد وتنشئة الاطفال .

فاذا ذهبنا نتقصى أسلوبهـــا فى الكتابة وطريقتها فى البحث

ألفيناها قريبة في النهج من أستاذها الدكتور طه حسين مع استقلال واضح في شخصيتها .

وهي كالجامعيين لا تعطى الادب طابع الحرية ، وانما تؤمن به في حدود من النظريات وقيود من الاوضاع والقواعد . وإن لم يكن الادب في يوم من الايام مقيدا أو مستعبداً .

لقد قالت سهير الشعر في أول الشباب . وكانت بعض فصول انتاجها تعطى الطابع النفسي هذا الطابع الهادىء الذي يرسم صوره السلام والانطواء والصفاء الروحي . ولكنها تحولت بعد ذلك حيث أوغلت في الطابع العلمي وأوفت للروح الجامعي كل وفاء . وإن كان ذلك في الاغلب على حساب الادب المتحرر من كل قيد .

أمينة السعيد



كاتبة ثائرة . لا يؤمن من يقرأها بأنها « انثوية الأدب » وإن كان قلمها يعطى صورة عكسية لهذا الاحساس فانني كثيرا ما أراجع ما تكتب على أنه من كتابات الرجال لا أجدني أجد فارقا كبيراً . أن فى طبعها وأسلوبها ذلك الطابع الرجل الذى يصدر عن طبيعه جريئة شديدة الجرأة . معتدة شديدة الاعتداد

ولعل هذا يرجع إلى أن « أمينة السعيد » كانت من أولى فتياتنا اللواتى اقتحمن حرم الجامعة فصادفتهن تلك المتاعب التى تعترض أى طريق جديد خاصة فى بيئاتنا منذ ربع قرن عند ما بدأ الاختلاط فى محيط الدراسة

ولعل مصدر هذا أيضاً . أنها وثقت بالناس فى صدر شبابها ثم تبين لها عكس ما كانت تعتقد . « كنت فى فجر شبابى شديدة الثقة بالناس آخذ بمظاهرهم وأحكم على اخلاقهم بما يتبدى أمامى من أقوالهم وافعالهم على اعتبار أن الوجوه مرآه صادقة لما فى القلوب . وبدافع من هذه الثقة العمياء أخذت من بين معارفى أصدقاء . ظننتهم نبلاء . فاخلصت لهم الوفاء . وكانت

حياتهم موحشة فآنستها بعطفى . ونفوسهم كسيرة فقومتها بحنانى . ثم كشفت القلوب عن سترها .

فرأيت القبح فى صور لها أعجبت بجمالها . فأوجعنى قلبى لصدمتى . وضاق صدرى بمحنتى . وشفيت بعد زمن قصير ولكنه المحنة أنهكت قدرتى على الوفاء واستنفذت ذخيرتى من العطف وعلمتنى أن أكون بخيله بقلبى لا أعطى منه إلا قليلا . ولا اتطلب من الناس كثيرا .

وهى تعتز بجرأتها مهما رأى الناس فيها « من طباعى التى كنت أعتز بها كل الاعتزاز : تلك الجرأة الشديدة التى لازمتنى منذ صغرى . ونمت مع الأيام ونضجت . حتى أصبحت صفة متصلة فى أخلاقى . فكنت أفعل ما أشاء وأقول ما أريد . وألبس ما يحلو لى ولا يهمنى أن رضى الناس أم كرهوا ما دمت مطمئنة الضمير إلى عفة مقصدى . نقية القلب أمام الله الذى هو الحكم الأول والأخير فى نفوس عباده وأعمالهم وكثيراً ما كانت هذه الجرأة تثير العواصف فى وجهى فازداد تشبثا بأساليبى حتى نزول الغمة وينتصر الحق فيقتنع الناقدون من تلقاء أنفسهم بخير ما فعلت .

ولكنها ترى أنها عنيفة الطبع أكثر مما يجب « إنى ذات طبع عنيف أثور لاتفه الأسباب . و أقول الحق أننى كنت أخرج فى غضبتى عن حدود الاعتدال والوقار فاخطىء فى حقى وفى حق الناس ثم لا ألبث أن أهدأ وآسف على ما بدر منى ولكن بعد فوات الأوان .

وقد صورت أمينة السعيد بيئتها الأولى فقالت أنها نشأت صريحة فى القول تبدى الرأى فى أمانة إذا ما طلب منها ولا تتطفل به على أحدا ولا تعرف المجاملة فى الحق . « كنت أمينة بضميرى . إذا أحببت اقبلت وإذا كرهت اعرضت . ابتسم لما يسرنى . وأقطب لما يغضبنى . امتدح الخير جهارا وأذم الشر علانية » .

وقالت أن هذا السلوك قد أدى بها إلى أن غضب الناس عليها . وتحاشاها الأصدقاء . وتفرق جمعهم من حولها ، ثم وجدتنى أقف وحيدة فى طريق ملىء بالعقبات وتحت سيل منهمر من اللوم والنقد والشك »

وقد أحبت الكاتبة الأدب منذ شبابها وكرهت وظائف الحكومة . واشتغلت بالصحافة . وترى أنها أديبة أكثر منها صحفية وقد قرأت كثيراً ولكنها لا ترى أن شخصيتها تتأثر بالقراءة فى كثير ولا قليل أو تخرج عن طريقها المرسوم . « ذلك لاننى لست ممن يتغيرون بما يقرأون . وأعتقد أن التغير دليل الضعف . وعنوان الحرمان من الصفات الرئيسية التى تجعل من كل انسان شخصا قائماً بذاته له شخصيته المميزة واتجاهاته الفكريه الخاصة .

ونحن لا نوافق الكاتبة على هذا الرأى . وإن كنا نراه يستطرد مع طبيعتها الحادة التى تبدو من خلال هذه الملامح التى جمعناها عنها من كتاباتها ..

وإن كانت هى تسجل على نفسها أنها اضطرت أخيراً إلى أن تتخلى عن جرأتها المعهوده وتنحو نحو التحفظ فى كل نواحى حياتها . ثم تزن الأمور بألف ميزان قبل أن تتقدم خطوة إلى الامام .

كانت أمينه السعيد أول فتاة لعبت « التنس » فى ساحة الجامعة وناقشت رواية مجنون ليلى فى قاعات الجامعة . وأول من خلعت غطاء الرأس فى كلية الآداب .

ولعلها أول سيدة تكتب كتابا جريئا عن « بيرون » .. وتختار شخصية بيرون بالذات . وهى تحب شخصية « رابعة العدوية » حبا روحيا . لم أر صاحبته إذ سبقتنى حياتها بمئات السنين ولكنى عرفت سيرتها من التاريخ فقربها الكتاب إلى نفسى . وأودعها الاطلاع بين طيات قلبى حتى لأحس بوجودها أحيانا أكثر من الأحياء .. »

فاذا أردنا أن نعرف أثر الزواج فى اتجاهها الصحفى والادبى . وفى اتجاهها فى الحياة عامة تقول « . . لو لم اتزوج جامعيا يقدر العلم والثقافة . ويحمل الجهاد فى سبيل المثل والمبادىء ما استطعت أن أشق طريق فى عالم الكتابة . ولا أمكننى أن أخدم بلادى فى أكثر من ناحية . فالرجل يكره بطبعه أن يوسع ميدان العمل أمام زوجته . ويبغض أن توزع حياتها بين البيت والمكتب . ولكن العقلية الجامعية السامية أرتفعت بزوجى فوق هذه السقطات الفكرية . فاخذ بيدى فخوراً نحو تنمية مواهبى .

وبذلك امكننى أن أجوب وحدى انحاء الشرق وأزور أقطاره البعيدة ولا رفيق لى فى سفراتى الكثيرة غير ضمير فى خفرته الثقة به إلى المبالغه فى تلافى الاخطاء والتمسك بدواعى الكمال

وإننى اعترف فى صراحة اننى مدينة لزوجى بكل ما وصلت اليه من قدرة كتابية ومكانة اجتماعية »

وتقول أمينه عن نفسها انها ليست ربة بيت ناجحة فحسب . بل أنها ممتازة فى هذه الناحية . وانها تجمع النواحى الثلاث فزوجها سعيد كل السعادة وأولادها مثال التفوق والاجتهاد والادب . وبيتها جميل نظيف انيق .

ولكن أمينه السعيد تغلب العمل الصحفى على التأليف ولذلك فليس لها فى أيدى المثقفين إلا كتابين أو ثلاثة لا تعطى فى مجموعها صورتها الادبية الكاملة

وداد سكاكيني



كاتبه من دمشق تعيش فى القاهرة . وتغمر الصحف فى القاهرة ودمشق ولبنان بانتاجها الداخر أحبت القاهرة قبل أن تراها . فلما عاشت فيها ازدادت بها اعجابا . وهى تعطيك منذ أن تراها طابع الجرأة والاقتحام . فهى من ذلك النوع الذى يحب الهجوم . وهى تبدو لك عندما نقلب صفحات المجلات والكتب لتحاول أن ترسم لها صورة نفسيه تبدو فى ملامح الكاتبة الناقدة الجريئة التى لاتنى تهاجم ولا تدع فرصة دون أن ترد الصاع صاعين . فهى تهاجم الادباء الذين يدافعون عن العامية وتهاجم الذين يقولون فتش عن المرأة وتقول لهم . بل فتشوا عن الرجل وهى تصف المرأة فى هذه الصورة الشعرية الرائعة «(1) هى نبع فاشربوا منه سائغاً طهوراً . ولا تعكروه بالقذى أو ترموه بالحجارة وهى قيثاره فوقعوا على أوتارها الانغام العذاب التى تهدهد الآلام وتنشر الوئام والسلام .

(1) الثقافة — ٢٣ مارس ١٩٤٣ .

« فتشوا عن المرأة فى تضميد الجروح . ومواساة المرضى واسعاف المساكين
« فتشوا عنها فى أطوار الأمومة الرحيمة . فهناك اقصى غاية الجود والتفدية
« تسهر لينام أولادكم وتجهد ليستريحوا وتفديهم بالروح مهما اسا وا
« فتشوا عنها وهى منجبة العظماء الذين كتبوا لامتهم سجل الخلود والامجاد مدى الاباد .»

وهى تضم قصصها مجموعة من الرؤى والذكريات فيها اشواقها إلى دمشق وحنانها إلى أشجار الخريف فى بيروت . والنيل والمساجد فى القاهرة . .

ووداد عربية أصيله فهى تعالج الامور وتنظر اليها من هذه النافذة . وهى بذلك تختلف كثيراً عن أدبائنا . وهى بليغة اللغه لا ترضى أن تدعها للبساطة واليسر الذى درجت عليه كاتباتنا اللواتى اتصلن بالصحافة . وهى لاتنسى طابعها العربى الاصيل عندما تصف القاهرة فى هذه اللوحة الرائعة : كنت فى دمشق أتوق إلى القاهرة لارى فى مجالهـا طوابع الشرق والاسلام فاتم طواف النظر وحج النفس إلى شرفتنا العريقة وقد سحرتنى القاهرة على نحو ما سحرتنى دمشق .

فعلى ضفاف النيل . وفى ظلال النخيل . حططت رحلى واستروحت بأرض مصر ، وطافت بى الخواطر مطاف المجد . فرأيت النيل وكأنه نهر من ذهب . عاشت لى جانبيه أمم لم تمت ظمأى . وكررت فى الذكرى أيامه الغر المحجلة .»

و « وداد » فيها طابع الانثى الواضح الذى لايفتقده طويلا . وتلقاه دائما . تلقاه فى هذه الفصول التى كتبتها عن المرأة تصور فيها ملامح روحها .
« أما دموع المرأة إذا صدقت كالزهرات العاطرات أو كقطرات الندى فى البكور على الورد والريحان . . على أن دموع المرأة فرجة من همها وألمها .

وراحة لروحها المرهفة . إلا أن البكاء والنساء صنوان . ولقد بكين من يوم حواء . وما أقرب بكاء المرأة اليها وما أحناه عليها . فليس بينها وبينه حجاب ولا حساب . إنها تبكى طفله وعجوزا . وتبكى غنيه وفقيره . تبكى إذا تألمت أو اثمت . وتبكى إذا زلت ثم ندمت . وتدمع من فرط السرور واهتياج الشعور . وتستجيب لها المدامع . إذا تم عنداها فراق أو خاب لها رجاء . وتجد فى نفسها من سرعة البكاء وسهولته ما تجده من افترار البسمات على شفتيها وتسلل الضحكات إلى فمها . وذلك لرقة قلبها . ورهافة حسها ومزاجها »

هذه لوحة أنثوية خالصة تدل على عمق فى تصور حيـاة المرأة . ولعلى لا أجد مثل هذه الصور إلا عند أمثال « وداد سكاكينى » من كاتباتنا اللواتى تفرغن للحيـاة الزوجية وبعـدن عن مجال العمل والاتصال بالمحيط العام اتصالا مباشراً . فان الحياة فى المحيط الزوجى تعطى هـذا الطابع الانثوى الخالص . . .

ولعل هذه الصورة أيضا التى نأخذها من كلمتها «سحر المرأة» تعطى تأكيداً لهذا المعنى الذى ذهبنا اليه .

« رب راء لامرأة يعرفها أو يصادفها . وكأنها قد صبت فى القالب أو نحتت مثل دمية أو تمثـال . لكن تنقصها الروح والحياة . ولو جالت من عروقها الدماء لما سكبت عليها من السحر قطره . ولقد يكون السحر ساكنا كما نراه فى الصورة الفاتنة . وكأى من صورة يخيل اليك أن السحر يترقرق فى خطوطها وملامحها . فلما نطقت وتحركت . عريت من الصناعة ، فاذا هى مموهة مزوره كالدينـار الزائف . ولقد يكون هذا السحر فى المرأه كونه بين الزئه والحجر ، فلا يتراءى حتى يقدحه قادح . . . »

ولست أدرى هل تكون المرأة حين تتكلم عن سحر المرأة أكثر

صدقا من الرجل . أم أن الرجل هو وحده الذى يستطع أن يتحدث فى هـذا الموضوع الخطير .

الحق أن وداد سكاكينى : كاتبة انثى . وهى بالرغم من أنها تعيش فى فى محيط البيت إلا أنها من ذلك النوع المقتحم الذى ينزل إلى المعارك بقوة ويحرص على لغةالضاد وإمجاد العرب ويعطى صورة عاطفته فى أثاره بوضوح

الحب والمجد

في حياة الشعراء المعاصرين

نوافذ على حياة الادباء

الكتاب الرابع فى هذه المجموعة ويشمل حياة خليل شيبوب ومختار الوكيل وفتحى رضوان وأمين الريحانى وبنت الشاطىء وجليلة رضا وفدوى طوقان ونازك الملائكة

— يصدر قريبا —